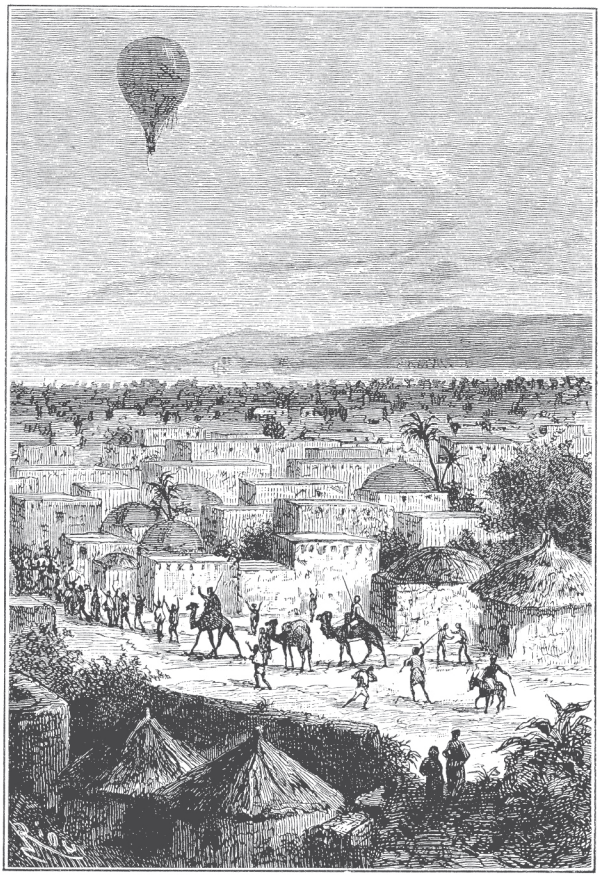
الرِّحلَةُ الْجَوِّية

فِي المَرْكبةِ الهَوائِيّة

(من شرقي إفريقية إلى غربيها)



يوسف اليان سركيس

عن كتاب جول غابرييل فيرن «خمسة أسابيع في منطاد»

(الجزء الأول)

كتاب الدوحة

الرّحلَةُ الْجَوّية
فِي المَرْكبةِ الهَوائِيّة

يُوزّع مجّانًا مع العدد (121) من مجلّة «الدوحة» - نوفمبر - 2017

عنوان الكتاب: الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقية إلى غربيها)

المؤلف: جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف والصفحات الداخلية: للرسام الفرنسي إدوارد ريو (1833 - 1900)
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

الرّحلَةُ الْجَوّية
فِي المَرْكبةِ الهَوائِيّة

(من شرقي إفريقية إلى غربيها)

يوسف اليان سركيس

عن كتاب جول غابرييل فيرن «خمسة أسابيع في منطاد»

(الجزء الأول)

(نسخة مُطابقة للطبعة الأولى بيروت 1875)

كتاب الدوحة


MAP
OF
COSTE

الفصل الأول

في مقصد العلَّامة فرغوسن ووقوع المباحثة عنهُ

لما كان اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني سنة ألف وثمانيمائة واثنين وستين أذاعت الصحيفة الإنكليزية المعروفة باسم دايلي تلغراف النبذة الآتي ذكرها.

أنه عن قريبٍ ستنجلي للعيان غيوم الظلام التي تستر عن الخاص والعام ما في بطون إفريقية وأقفارها الشاسعة من الأسرار والخبايا والكنوز والخفايا، وقد طالما جد في اكتشافها العلماء والسياح وبذلوا وسعهم في الدخول إلى تلك الأقاليم والبطاح، وفي الأيام السالفة كان يُعَدُّ ضربًا من الجنون والخرافات التشجيعُ على الرحيل بقصد اكتشاف عيون النيل.

فالعلَّامة برث رحل إلى بلاد السودان في الطريق التي سلكها دنهام وكلابرتون، وبحث العلَّامة ليونكستن عن أحوال بلاد إفريقية من رأس الرجاء الصالح إلى بحري الزمنزي، وأما القبطانان برتون وأسبيك

فاكتشفا البحيرات العظيمة الداخلة، وبذلك فتحا سبيلًا لنشر راية التمدن في تلك الأقطار، حيث ترفرف إلى الآن أجنحة ظلام الجهل الدامس. أما قلب إفريقية فهو القطر الواقع ما بين البحيرات المومأ إليها، لذلك لم يتمكن سائح من الولوج فيه وبه تنوط الآمال.

فقد صمم العلَّامة ساموئيل فرغوسن أحد السياح المشهورين على أن يفك عقدة الرحلات السابقة بإقدامه على اكتشاف قلب إفريقية من الشرق إلى الغرب في المركبة الهوائية، وبلغنا أن صعود فرغوسن إلى الفسحات الجوية يكون من جزيرة زنجبار عند الساحل الشرقي، أما نزوله إلى الأرض ففي تقدير الله سبحانه وتعالى وهو يهديه إلى حيث يشاء.

وقد عُرضت هذه المسألة نهار البارح في الجمعية الجغرافية الملوكية في لندرة، وقر رأي أعضائها على بذل ألفين وخمسمائة ليرة إنكليزية لمصاريف هذه الرحلة الجوية. وسنطلع قراء صحيفتنا إن شاء المولى على وقائع هذه السفرة التي لم يسبق لها مثيل.

فلما انتشرت هذه النبذة قام الجدال على قدم وساق بهذا الخصوص وظن الكثيرون أن مقصد العلَّامة فرغوسن ضرب من الخرافة والحكايات، أشبه به برنوم الأميركاني الشهيرةُ خزعبلاتهُ وغرائبه المضمحلة.

ثم أخذت بعض الصحف تستهزئ بجمعية لندرة الجغرافية، وتسخر بما جاء عن فرغوس ورحلته الجوية في المركبة الهوائية، فنهضت صحيفة ألمانية وأجبرت المياومات المذكورة على السكوت، لأن أحد مديريها كان يعرف العلَّامة فرغوسن وحذاقتهُ العجيبة وجراءتهُ الغريبة.

وما مضت برهة إلَّا وقع برقع الشك عن أعين الناس، وأوعز إلى معمل ليون أن يشتغل قماشًا حريريًا خاصًا بالقبة الهوائية، وأمرت الحكومة الإنكليزية بأن تقام تحت أمر فرغوسن السفينة المعروفة باسم ريزولوت ليركبها وينقل عليها لوازم سفره.

وقد أذاعت من ثَمّ المياومات كلامًا كثيرًا عن هذا المشروع الغريب؛ فمنها ما تنبأ بنجاحه وفلاحه، ومنها ما هزأ بفرغوسن وآرائه ومركبته ومنها ما أشار عليه أن يندفع بمركبته الهوائية إلى الأقطار الأميركانية، وذلك بنية الهزء والسخرية.

ولا حاجة لذكر جميع آراء كتاب الجرائد بهذا الشأن، بل نقول: إنه قد تشارط أقوام كثيرون بعضهم بين بعض، حسب عادة الإنكليز، أولًا على وجود العلَّامة فرغوسن الحقيقي أو الوهمي، ثانيًا على الرحلة ذاتها إذا كانت تباشر أو لا تباشر، ثالثًا على نجاحه في مشروعه أو فشله، رابعًا على رجوعه أو بقائه في تلك الأقطار الشاسعة، وأودعوا مبالغ عظيمة تنفيذًا لهذه الشروط.

ولذلك رأيت الناس جميعًا من العامة والخاصة شاخصين ومحدقين الأبصارَ بذلك الإنسان العجيب الذي يتجاسر على المرور بأواسطِ إفريقية ومفاوزها الهائلة، وكثيرون هم الذين أقبلوا عليه وأرادوا الاشتراك معه في رحلته فأبى أن يقبل أحدًا دون أن يعطي سببًا عن رفضه، ومن المعلمين الماهرين في صنيع الآلات وغيرها من أرادوا أن يفهموه عن أشكال مركباتهم الهوائية ليتخذها أسًا له فأبى أن يصغي لأحد، وكان مهتمًا بشغله ويتأهب للرحيل.


H. HELAVILLE

الفصل الثاني

في صاحب العلَّامة فرغوسن وجدالهُ معهُ على الترحال وفي ذلك فوائد

وكان للعلَّامة ساموئيل فرغوسن صاحب حميم مجبول على أطباعه وخلائقة، وينحو نحوه في جميع مأربه، وهو من بلاد إسكتسيا، يقال له ديك كنادي، وكان يقطن مدينة ليط بقرب ايدمبرج، ومهنته الصيد وقد جاء عنه أنه كان ماهرًا حاذقًا في ضرب الرصاص، وخصوصًا بالسلاح المعروف بالقربينة، أما قامته فلا تبلغ أقل من ستة أقدام إنكليزية وتلوح على وجهه تباشير الهشاشة والبشاشة، وهو على جانب عظيم من حدة الطبع، ذو قوة وبأس وجرأة وجسارة وبسالة طبيعية، وقد اسمَرَّ وجهه من قبل حرارة الشمس، وكان حاد البصر أسود العينين.

وقد كان صاحبَ العلَّامة فرغوسن في البلاد الهندية لأنهما كانا من فرقة عسكرية واحدة، ولما كان ديك في تلك البلاد يصيد الأفيال والنمورة، وكان ساموئيل يبحث عن أنواع النباتات والحشايش وأجناس الدواب والهوام؛ كل منهما كان ماهرًا في حرفته، ولم يعرض أصلًا لهذين الصاحبين أن

ينشل الواحد الآخر من تهلكة، ولذا كانت رباطات صحبتهما وثيقة، وإذا اتفق لهما أن يتفارقا قربتهما وجمعتهما سريعًا جاذبية التعطف والمحبة.

وعند رجوعهما إلى لندرة كانا يتفارقان دائمًا لداعي رحلات العلَّامة ساموئيل، ولكن عند رجوع هذا من السفر كان يقصد محل صاحبه، ليس ليزوره فقط، بل ليقضي عنده بعض الأيام والليالي.

وأما ديك فكان لا يحدث إلّا عن الماضي، وبالعكس ساموئيل؛ فإنه لم يكن يتبصر إلّا في المستقبل، فهذا ينظر إلى أمامه وذاك إلى ورائه، ولهذا السبب كنت ترى ساموئيل خائضًا دائمًا بحورَ الهمة، وكنادي راتعًا على سواحل الراحة.

وبعد رحلة العلَّامة فرغوسن إلى قطر الطيبة الشاسع استمر سنتين في لندرة، ولا يتكلم قطعًا عن رحلة أخرى أو مشروع غير ما عاناه في حياته، فظن صاحبه الموماً إليهِ أنه قد خمدت في قلبه نار الرغبة في ركوب مطايا البحار وغوص البطاح والقفار لكثرة ما قضاه من الأسفار، وكثيرًا ما حثه على الإضراب عن مثل هذه الأفكار بقوله له: حسبك ما درست وسافرت وبحثت، أما ساموئيل فلم يكن يجيبه بشيء لهذا الكلام، بل كانت تلوح على وجهه أَمَارَات التبحر والتبصر ويهم دائمًا في الشغل والعمل، ويسهر الليالي في ضرب حسابات وامتحان آلات لا يدركها إنسان، وكأنك به قد اتبع رأي الشاعر العربي حيث قال:

بقـــدر الكـدّ تُكْتَسَـبُ المعـالي ومـن طلب العـلا سـهر الليالي
يغـوص البحر مـن طلـب اللآَلي ويحظـــى بســـيادة والنـــوالِ
ومـن طلـب العـلا من غـير كدٍّ أضـاع العمـرَ في طلـب المحالِ

وكان يفكر ديك بنفسه بما عساه يتبصر بهِ العلَّامة فرغوسن، وما الذي يشغل منه الأفكار في الليل والنهار.

فقد اطلع على هذا السرّ المخبأ بقراءتهِ نبذة الصحيفة التي أذاعت مقصد العلَّامة في رحلتهِ الجوية.

وعند فروغهِ من تلاوة تلك الأساطير صاح وقال: اللهمَّ هل أهملت عبدك ساموئيل؛ فإن مخاخه قد فرغ من التعقل وتخلله الجنون؛ كيف عساه يجوز أقطار إفريقية في المركبة الهوائية، فلا ريب أن ما كان يتبصر بهِ منذ سنتين هو هذه السفرة التي لا يتصورها عقل بشر إلّا إذا كان مصابًا بداء السرسام.

حينئذٍ أتت إليهِ زوجتهُ وقالت له: لعلَّ ذلك سرٌّ ضمنه دعاوٍ لا تدركها، فأجابها وقال في الحال: إنكِ لا تعرفين خلق هذا الإنسان؛ فإنهُ إذا رصد وجد، وإذا عزم تمم، ولكن ليت شعري ماذا يريد أن يفعل في طبقات الجو؛ هل حسد النسورة على طيرانها وصمم النية على الاقتداء بها، فإني سأبذل الجد والجهد لأصده عن ضلالهِ، وإلَّا إذا ترك على حاله يخطر بباله أن يرتقي إلى طبقات القمر في ليلةٍ رائقة.

ولما عقب الصباح تلك الليلة ركب ديك المركبة الحديدية النارية قاصدًا مدينة لندرة، وما مضت ثلاثة أرباع الساعة إلّا وصل إلى بيت صاحبه العزيز، فطرق الباب خمس مرات بشدةٍ وعنف فنهض فرغوسن دون أن يعرفه، وفتح له الباب بيده ولما بصر به قال له: أ أنت ديك؟...، وما عساك تطلب في لندرة في أيام الصيد؟!

وبعد أن تصافحا وقرأ السلام بعضهما بعضًا، قال ديك: أتيت لأمنع عمل جنون لا اسمَ له.

قال ساموئيل: وما عسى يكون هذا الجنون؟!

قال ديك: وهل لمقال صحيفة دايلي تلغراف صحة عن رحلتك الجوية؟

قال ساموئيل: وبهذا تعني؟!...؛ فمالك والصحف، فإنها قليلة التحسب...؛ اجلس هنا لأطلعك على حقيقة الأمر.

قال ديك: وكيف أجلس قبل أن تخبرني أن كنت على عزم في معاناة هذه السفرة؟!

قال ساموئيل: نعم يا خليلي، وإني متأهب للسفر والحاجات قد...

فقاطعه ديك، وقال: أين هذه الحاجات لأقطعها إربًا، وألقيها خارجًا فتذروها الريح كالهباء المنثور.

وفي الحقيقة تلاعب وقتئذٍ على مُحَيَّا ديك أطوار الكدر والحمية.

قال ساموئيل: مهلًا مهلًا يا صاحبي؛ لو كنت عالمًا بمقاصدي ومآربي ما كنت حميت وحنقت.

قال ديك: وما هذه المقاصد والنوايا؟!

فغير ساموئيل الحديث بقوله: لولا تراكم الأشغال عليَّ لكنت أطلعتك على كل ما يختص برحلتي.

قال ديك: وما حاجتي إليهِ؟! قال ساموئيل: لأنني مصمم النية على أن آخذك معي في مركبتي فلما سمع ديك هذا الكلام قفز قفزة الغلام، وقال: لعمرك وهل أرضى بأن أكون محبوسًا وإياك في منزل بيت لحم؟!...، «وهو منزل للمجانين في لندرة».

فقال ساموئيل: لو أَصَخْتَ لي سمعًا، عشر دقائق، لشكرت لي معروفي على اختياري إياك دون غيرك لمرافقتي.

قال ديك: هب أني أبيت الذهاب فماذا تفعل؟!

قال ساموئيل: ولن تفعل ذلك.

قال ديك: وإن فعلت؟

قال ساموئيل: عند ذلك سأنطلق وحدي.

قال ديك: هات لنا لنرى حديثك لعل فيه ما يُقنعني.

قال ساموئيل قُم لنتحدث يا صاح ونحن على مائدة الفطور...، وبعد أن وصلا إلى المائدة وجلسا مقابلين قال ديك: لعمري، كيفما قلبت مقصدك وجدته ضربًا من الغباوة والوبال، وأراه نوعًا من المحال، وعريًا من كل تعقل وإفراز.

قال ساموئيل: سنرى ذلك عند الامتحان؛ إذ عند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

قال ديك: لله درك!... كيف تمتحن الأمر والواجب عليك عدم الامتحان؟!

قال ساموئيل: ما ترى يمنعني؟!

قال ديك: هل يخفى عليك ما سيحيق بك من المصاعب والأخطار والمهالك؟!

قال ساموئيل: إنما المصاعب يجب على الإنسان الظفر بها، وأما الأخطار فمن تراه يتحاشى عنها ويتنزه؟!...، وقد جاء أن زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا وإذا جلست على المائدة وأدرت تناول الطعام فلا يخلو الأمر من الخطر، فعلينا أن ننظر إلى ما سيجري كأنه جرى، ونعتبر المستقبل كأنه حاضر، لأن المستقبل ليس إلّا بحاضرٍ مقبل.

قال ديك: وهذا قليل لديك؛ ألعلك ممن يتكلون على القدر؟!

قال ساموئيل: نعم، ولكن على الوجه الحسن؛ فليس لنا أن نهتم بما أعد لنا من النصيب، بل الخليق بنا أن نتذكر المثل الإنكليزي القائل: «من خُلِقَ ليُشْنَقَ لن يُغْرَقَ».

فأجاب ديك لذلك المقال بما يطول شرحه ويضيق بنا المجال لذكره، وبعد أن فرغ من القيل والقال، والتنازع والجدال، قال: وإذا كان لا بد من الترحال فلم لا تسير بالطريق التي سلكها الرجال؟!

قال ساموئيل: أتسألني لماذا لا أسير في الطريق التي سلكها المسافرون من قبلي، وأنت عالم أن جميع السياح الذين قصدوا بطون إفريقية ذهبت مساعيهم هدرًا، وهلكوا أَشَرَّ الهَلَكات، وأصيبوا بأَمَرِّ الرزايا والآفات؛ فقد ذُبِحَ منغوبرك عند نهر النيجر، وفُقِدَ فوجل في مفاوز واداي الشاسعة، ومات أودني في مرمر، وكلابرتون في سكاتو، وتقطع مزان الفرنسي إرْبًا، وقُتِل لاينك من التوارج، وذُبِحَ الهمبورجي سنة 1860؛ فهلك جميع هؤلاء

لأنه ضرب من المحال أن يتحمل المرء طويلًا الجوع والعطش والمشاق والأمراض، وأن ينازع ويباطح الوحوش الكاسرة، والأقوام المتوحشين البرابرة؛ فما لم يتم بطريقة عسى أن يتم بطريقةٍ أخرى، وحيث إنه يمتنع المرور في وسط تلك الأقطار وجب علينا أن نمر من فوقها.

قال ديك: والحالة هذه فلنمر من فوقها طائرين.

قال ساموئيل: وما لي أن أخشى وأرتاب وقد رتبت وهيأت جميع الأبواب؛ فإني جهزت مركبتي الهوائية بنوع لا أخشى به السقوط، وإذا فرضنا وسقطت المركبة فأتمم الرحلة على سُنَّة من سبقني في ذلك، ولكني واثق أنه لجهة نظامها وترتيبها لا تسقط ولا تنهار.

قال ديك: كلا يا صاحبي؛ لا تَثِقَنَّ بهذه القبة الهوائية.

قال ساموئيل: كن على بصيرة أني بعونه تعالى وتوفيقه لا أفارق مركبتي إلّا عند وصولي إلى آفاق إفريقية الغربية، لأن بها يتم كل شيء، وبدونها أقع في وهاد المخاطر والوبال، وبها لا أخشى الحر ولا الصر، ولا الزوابع والزعازع، ولا الحرور ولا السموم، ولا الأهواء السقيمة ولا الأرياح المشؤومة، ولا الحيوانات الكاسرة حتى، ولا الأقوام الغادرة، فإذا أَحْسَسْتُ بحرارة أرتقي إلى علٍ، وإذا شعرت ببردٍ أنزل إلى أسفل، وإذا قابلني جبل أو طوط أمرُّ من فوقه فأقطع الجبال والوديان والبطاح والغيطان، وأجوز الأنهار والبحيرات، وأتنزه عن جميع الآفات، وأطير في الجو طيران البواشق دون أن يلاحقني ملاحق.

فلما سمع ديك هذا الخطاب ارتاع فؤاده وخالجه الاضطراب وأخذ يحدق

بصاحبه، ويظن بنفسه أنه طائر في الجو ومترجرج في عباب بحور العلاء، ثم قال: وهل وجدت وسيلة لقيادة المركبة الهوائية؟

قال ساموئيل: كلا!

قال ديك: إذًا إلى أين تذهب بها؟!

قال ساموئيل: أذهب حيث شاء ربك، ولكن من نيتي أن أسافر من الشرق وأحط في الغرب.

قال ديك: ولم ذلك؟

قال ساموئيل: لأني أسير مع ريح الصبا التي تهب بثباتٍ من الجهة الشرقية إلى الجهة الغربية.

تأمل ديك لبرهة، ثم قال: لست بمنكرٍ أَنّ... ريح الصبا... بالحصر... تقدر... تو..ا..فق... رحلتك.

قال ساموئيل: قل رحلتنا!...؛ هل لك آعتراض آخر يا ديكُ؟

قال ديك: كيف ولي ألف اعتراضٍ؟!...؛ وقبل كل شيء أطلب إليك أن تقول لي كيف تريد الارتقاء والنزول والرحيل في تلك الطلول دون أن يفرغ الغاز الذي به تطير المركبة؟

قال ساموئيل: وأنا أقول لك: إني لا أفقد ذرة واحدة من الغاز.

قال ديك: وتحط في الأرض كيف ومتى شئت!

قال ساموئيل: نعم ياصاح؛ فإني أحط كيفما شئت، ومتى شئت.

قال ديك: وكيف ذلك؟!

قال ساموئيل: هذا سري المُخَبَّى فثق بي وكن على أُهْبَة، وقل معي: السير إلى ما فوق.

فحاول ديك أن يظهر رأيه مطابقًا لرأي صاحبه، ولكن في نيته أن يقاومه في مقصده مقاومة الأسود.

فختم ساموئيل الحديث بقوله: قد رخصت لي الحكومة الإنكليزية في سفينةٍ تكون تحت أمري وتدبيري، فلابد من أن أبلغ جزيرة زنجبار قبل ثلاثة أشهر؛ فهناك أنظم مركبتي الهوائية، ونطير بها أنا وأنت.



الفصل الثالث

في ذكر الرحلات التي عاناها المسافرون في بطون إفريقية ومفاوزها
بقصد الاكتشافات الجديدة

وأما الناحية التي اختارها العلَّامة ساموئيل مركزًا للانتقال منها إلى الطبقات العلوية على أجنحة المركبة الهوائية فهي زنجبار، وكانت نعم الخيار.

وزنجبار جزيرة واقعة في جهة إفريقية الشرقية في عرض جنوبي °6؛ أي تحت خط الاستواء بأربعمائة وثلاثين ميلًا إنكليزيًا أو نحو 268 ميلًا هاشميًا، «والميل الهاشمي بمقام 4000 ذراع»، فيليق بنا أن نستطرد لذكر بعض الرحلات التي باشرها المسافرون في إفريقية بقصد الاكتشافات الجديدة.

وكان من قصد العلَّامة فرغوسن أن يعيدها، وهما اثنتان ذات أهمية جزيلة: الأولى رحلة برث سنة 1849م، والثانية رحلة الملازمين برتون وأسبيك سنة 1858م.

أما برث الهمبورجي فقد أوذن بأن ينضم هو وابن وطنه أوفرورك إلى الإنكليزي ريشردسون الذي كان قاصدًا بلاد السودان ببعثة من الحكومة، وبلاد السودان واقعة بين °15 و°10 من العرض الشمالي، ويقتضي للوصل إليها المسير في مسافة تنيف عن 1500 ميل في وسط إفريقية.

وإلى ذلك الوقت لم تكن تعرف تلك البلدان سوى بسفرة دنهام وكلابرتون واودناي من سنة 1822م إلى 1824م، فتتبع الرفاق المذكورون آثار سلفائهم وبعد أن وصلوا إلى تونس وطرابلس تقدموا إلى ما قدام، وبلغوا مدينة مرزوق عاصمة الفزان.

ثم انثنوا عن الخط المستقيم وداروا نحو غات إلى الغرب، وهم مقودون بقوم من التوارج، وبعد أن سُرِقُوا ونُهِبُوا وذاقوا أشر العذاب، واضطروا مرارًا إلى المناضلة والكفاح، وصلوا أخيرًا إلى غوطة الأصبان في شهرت1، وهناك فارق برث رفاقه وتقدم إلى مدينة أغادس، ثم رجع إلى القافلة وأخذوا في المسير في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الأول، فوصلوا إلى إقليم دامرغو، وتفارق الرفاق هناك، وعمد المعلم برث إلى مدينة كانو، وكان وصوله إليها بعد العناء الجزيل، وتَحَمُّل الصبر الجميل، ودفع المبالغ العظيمة لرؤساء أقوام تلك البلدان الظالمة.

ثم هجر مدينة كانو في 7 آذار برفقة خادمٍ واحد، وكان مصابًا بداء الحمى ومع ذلك قد صمم النية على مشاهدة بحيرة شاد، وبقي له للوصول إليها ثلاثمائة وخمسون ميلًا، فتقدم نحو الجهة الشرقية، ووصل إلى مدينة زوريكولو في إقليم برنو، وهذه المدينة محط لمركز أواسط إفريقية وهناك بلغه خبر وفاة رفيقه ريشردسون من شدة الضنك والتعب وقلة القوت،

ولمشاق أخرى حلت في إنسان متعودٍ الرخاء في معيشته، ثم رحل إلى كوكا عاصمة برنو عند سواحل البحيرة، وبعد ثلاثة أسابيع بلغ مدينة نغرنو في 14 نيسان، بعد هجرة طرابلس الغرب باثني عشر شهرًا ونصف.

وفي 29 آذار سنة 1851م، سافر ورفيقه أوفروك إلى مملكة أداموة في جنوبي البحيرة، ووصل إلى مدينة يولا، ثم عاد الكرة في شهر آب على مدينة كوكو، وهناك طاف حول منذارا وبرغيمي وكانم وأقصى جهة من المشرق، وهناك مدينة مزنا الواقعة 2° 1′ و17° من الطول الغربي.

وفي 25 من شهر تشرين الثاني سنة 1852م، بعد أن قضى رفيقه نحبه، تقدم إلى الجهة الغربية وعرج على مدينة سوكوتو وجاز بنهر النيجر ووصل أخيرًا إلى مدينة تمبكتو، وهناك ألقى الشيخ القبض عليه، ولبث يعذبه ويذيقه أمرَّ الوبال والمتربة نحو ثمانية أشهر، أما قوم الفولّان فهاجوا وماجوا لأنهم لا يحتملون زمانًا بقاء رجل مسيحي في تلك المدينة، فأفلته الشيخ، ورحل المعلم برث منها في 17 آذار سنة 1854م، واحتمى بتخوم المدينة، ومكث ثلاثا وثلاثين يومًا محرومًا كل ضروریاته، ثم رجع إلى كانو ودخل كوكا ولبث فيها أربعة أشهر، ومن هناك سار في الطريق التي خطها دنهام حتى عاين أخيرًا مدينة طرابلس الغرب في أواخر شهر آب سنة 1855م، ثم سافر إلى لندرة وحده في 6 أيلول دون رفيق، ولم يتجاوز°4 من العرض الشمالي ولا الدرجة °17 من الطول الغربي.

فهذه رحلة المسافر الباسل برث الذي حاز الشرف الخطير لدى أعين العلماء وأصحاب الفنون والذكاء.

ولكن لم يقدر قط أحد على الوصول إلى عيون النيل السرية، وعلى ما قرره

الطبيب الألماني فرديننند ورن فإن المسافرين الذين بعثهم محمد علي سنة 1840م لم يبلغوا سوى إلى غندوكورو بين ˚4 و ˚5 في السمت الشمالي.

وفي سنة 1855م تسمى برون روليت قنصلًا لدولة سردينيا في مملكة السودان الشرقية، خلفًا لمن مات قبله موت الشقاء والعذاب، وهو واداي؛ فهذا القنصل الجديد سافر من الخرطوم ودعا نفسه باسم يعقوب، وتقدم إلى ما قدام وهو يتاجر بالصمغ والعاج، حتى وصل إلى بلانيا فوق درجة ˚4، ثم عاد الكرة على خرطوم وهو مبتلًى بمرض عضال بلغ به إلى القبر سنة 1857م.

فلم يقدر أحد على مجاوزة الحدود المعلومة؛ لا العلَّامة بنه الذي تقدم إلى قرب غندوكورو، لأنه رجع فمات في خرطوم وهو ضَنٍ من التعب وخور القوى، ولا السائح مياني من البندقية، ولا التاجر المطالي أندريا دبنو الذي اهتم بالوصول إلى عيون النيل، لكنه لم ينل مرامه.

وفي سنة 1859م بعثت الحكومة الفرنسية موسيو غيليوم ليحان إلى بلاد الخرطوم وأصحبته بواحد وعشرين جنديًا، فسافر في البحر الأحمر ثم نزل إلى ضفة النيل، ومع هذا كله فلم يتمكن من مجاوزة تخوم غندوكورو، وحاقت به المخاطر العظيمة لداعي ثورة ما بين الزنج.

وطالما قد أوقف هذا الحد شجاعة المسافرين والسياح، وكثيرون أولئك الذين أرادوا الوصول إلى عيون النيل برحيلهم إلى جهة إفريقية الشرقية فلم يتمكنوا من ذلك؛ فمن سنة 1768م إلى سنة 1772م رحل السائح بروس الاسكتسي من ماصوَّة، وهي مينا بلاد الحبشة ووصل إلى خراب أكسوم، وشاهد عيون النيل حيث لا وجود لها، ولم تأت أتعابه بثمرة.

وفي سنة 1845م سافر السائح الفرنسي مزان إلى بغا مايو قبالة زنجبار، ووصل إلى مدينة دجلامهرا حيث أذاقه سيد قومها أمر العذاب والبلاء، وفي سنة 1859م، في شهر آب، سافر الشاب روشر الهمبرجي صحبة قافلة تجار أعراب، وبلغ بحيرة نياصًا، وهناك ذبح في رقاده.

أخيرًا، سنة 1857م، بعثت الجمعية الملوكية الجغرافية في لندرة الضابطين برتون وأسبيك المشهورين ليستقرئا بحيرات إفريقية العظيمة؛ ففي 17 حزيران قاما من مدينة زنجبار وتوجها إلى الناحية الغربية، فبعد أن قضيا أربعة أشهر في مفاوز الضيق والعذاب الشديد؛ حيث نهبت حوائجهما وقتلت ناقلاتهما، وصلا إلى مدينة كازه، وهي مركز اجتماع التجار والقوافل، وهذه المدينة كائنة في أواسط بلاد القمر، وهناك اكتنزا لهما ذخائر الفوائد بالاستفحاص عن أخلاق أقوام تلك البلاد وطبائعهم وحكومتهم وديانتهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم، ثم تقدموا إلى أول البحيرات العظيمة وهي تنغنايكا الواقعة بين 3ْ و8ْ من العرض الجنوبي، وكان وصولهما إليها في 14 شباط سنة 1858م، وهناك شاهدا أقوامًا مختلفة، وأكثرهم برابرة ومتوحشون.

وفي 26 آيار رجعا إلى كازه، وهناك مرض برتون واعتراه سقم شديد، فمكث مَبْلُوًّا به بضعة أشهر؛ ففي تلك المدة جاز أسبيك ثلاثمائة ميل إنكليزي في الجهة الشمالية، ووصل إلى بحيرة أوكراوي، لكنه لم يعاين سوى طرفها الواقع في درجة 2°30 عرضًا.

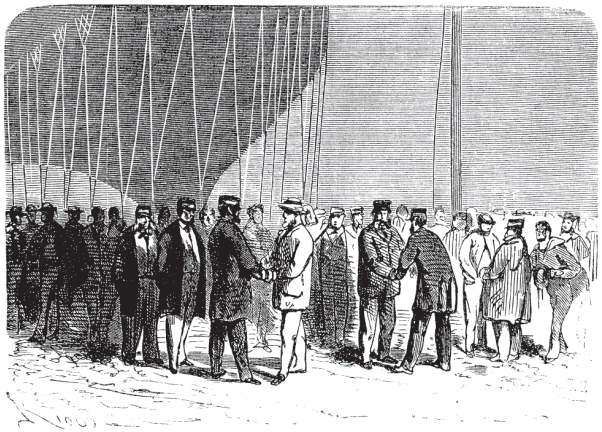
ثم رجع إلى كازه في 25 آب، وسافر مع رفيقه إلى زنجبار، فوصلا إليها في شهر آذار من السنة الثانية، ومن هناك قصدا لندرة وخصصت لهما

الجمعية الملوكية الجغرافية معاشًا سنويًا.

وقد لاحظ العلَّامة فرغوسن أن المسافرين المذكورين لم يجوزوا درجة 2° من العرض الشمالي، ولا درجة 29° من الطول الشرقي، ولذا أراد أن يجمع بين رحلة برتون وأسبيك، ورحلة برث ومن ثَمّ يقطع عرضًا ناف عن 12 درجة.

الفصل الرابع

في أهمية الرحلة الإفريقية



وكان العلَّامة فرغوسن يهم بتجهيز لوازم السفر العلوي، ويهيئ بناء القبة الهوائية بحسب إصلاحات اخترعها ويكتم سرها، وكان منذ زمانٍ أخذ بدرس اللّغة العربيّة ولغات الزنج المختلفة ونجح فيه، ليس بيسير، لشدة قوته الذاكرة، وانصبابه على كل ما ابْتَغَى قنيته.

وأما رفيقه ديك فلم يكن يفارقه بتةً، كأنه على خشية أن العلَّامة يفلت ذات يوم خفية عنه، وكان ينتهز كل فرصةٍ مناسبة ليرجعه عن مقصده، إلّا أن كلامه لا تأثير له في عقل صاحبه غير المبالي به.

وعليه كان يتنهد سرًّا ويقول في نفسه: لابدَّ لك يا ديك لابدَّ لك من تلك الرحلة المشؤومة، وعندها يظن بذاته صاعدًا إلى الجو وطائرًا في الفضاء لعبة للأرياح، ويضيق صدره ويخفق منه القلب وينتضح عرقًا، بل إنه كان يشعر وقت الرقاد باهتزاز وارتجاج مريعين يقلقان نومه ويرعبان

جنانه ويعدمانه راحة الليل، ولم تمض ليلة إلّا أحس بسقطة هائلة من أعالي طبقات السماء، وفي الحقيقة سقط من فراشه؛ أقله مرتان وهو في هذا الضغط والاضطراب.

وقد اعتنى في أول الأمر أن يظهر للعلَّامة فرغوسن الورم الذي طرأ عليهِ في رأسه من جرّاء سقوطه هذا، وقال له إذا كان من علو أشبار بليت بهذه النائبة فترى ما لكان قد حلَّ بي لو سقطت من طبقات العلاء!

أما فرغوسن فلم يتحرك فؤاده لهذا الاضطراب، بل أجاب وقال: إننا لا نسقط، فقال ديك: وإذا سقطنا فما الحيلة.

قال فرغوسن: كلَّا؛ فإننا لا نسقط، وكان جوابًا قاطعًا باتًا؛ إذ لم يتفوه ديك بعد ذلك بكلمةٍ البتة.

أمَّا أعظم باعث لاغتياظ ديك فكان أن العلَّامة لا يَعْتَبِرُ شَخْصَه بذاته، بل كأنه من متعلَّقاته ومن بعض أملاكه، وعلى الخصوص فإنه كان ينفعل عندما يسمع من فم فرغوسن التكلم في الجمع؛ إذ كان يقول دائمًا سنسافر «نحن»، سنتقدَّم «نحن»، ويقول دائمًا قبتنا ورحلتنا، ولم يقل قط قبتي أو رحلتي.

فكان الأمر مما يزيد ديك جزعًا واضطرابًا، ولو أنه عازم على ممانعة الرحلة أو أقله على عدم اشتراكه فيها، ومع ذلك لم يرد قط أن يَغيظَ صاحبه وخِله العزيز، وعليه كان قد أرسل سرًا إلى مدينة أدمبرج يطلب بعض حاجات له وملابس وأحسن أنواع سلاح للصيد.

ففي ذات يوم أخذ يفاوض صاحبه على هذه الرحلة قصدًا في منعه عن

معاناتها، فبدأ يعارض العلَّامة على مقاصد رحلته؛ فقال: أهل من أمر ضروري اكتشاف عيون النيل وهل يستفيد بذلك الجنس البشري؟...، وهل تتمدن أقوام تلك البلاد وتحظى بسعادة أوفر مما هي عليه الآن؟...، وما نفع الإسراع إلى ذلك؟...؛ إذ لابدَّ أن يأتي يوم يجوز فيه المسافرون بإفريقية كلها دون صعوبة وهلم جرًّا، فأجابه حينئذٍ العلَّامة فرغوسن وقال أتريد يا ديك، بئس الأدياك، أن أترك هذا الفخر لغيري وأتوقف عند موانع لا أهمية لها البتة؟...، فاعترض ديك كمألوف عادته، وقال: ولكن..

قال ساموئيل: ولكن ألا تعلم أن رحلتي تساعد أن تنجح الرحلات الحالية التي يعانيها المسافرون؟...، أيخفى عليك أن مسافرين حديثين متقدمون الآن نحو مركز إفريقية، وأن البحيرة المعروفة باسم أوكاراوي الواقعة في الدرجة 33° طولًا ظنها قوم أنها تمتد من الدرجة 30° 2 من العرض الجنوبي إلى الدرجة 2 من العرض الشمالي، وعسى أن منها تنبجس عيون النيل؛ فقد نظرت جمعية لندرة الملوكية إلى هذا الأمر بعين الأهمية، وبعثت القبطان أسبيك برفقة غرنت، أحد قواد الجنود الهندية، وأصحبوا معهما جنودًا، وجهزوا رحلتهما تجهيزًا بليغًا، وفي نيتهم أن يبلغوا البحيرة المذكورة ثم يرجعوا إلى غندوكورو على شاطئ النيل، وقد أمدَّتهم الجمعية بخمسة آلاف ليرة، فرحلوا من زنجبار في أواخر شهر تشرين الأول سنة 1860م.

وفي تلك المدة ورد أمر من الحكومة الإنكليزية إلى جون بتريك في الخرطوم؛ أن ينزل في سفينة في الخرطوم ويحملها زادًا وحوائج كثيرة، ويذهب لينتظر القافلة في غندوكورو، وأُرْسِلَ له لنفقة ذلك سبعمُائة ليرة إنكليزية.

قال ديك: نِعْمَ ما فعلوا.

قال ساموئيل: أرأيت الآن أن الوقت قد ضاق معنا، وأمسى هناك حاجة إلى سرعة الرحيل إلى تلك البلدان، وما عدا ما ذكرته لك من عمد البعض إلى اكتشاف منبع النيل؛ فقد رحل أناس كثيرون إلى أواسط إفريقية ليكتشفوا أراضيها وبقاعها وبطاحها؟ قال ديك: أفما هم مشاة؟!

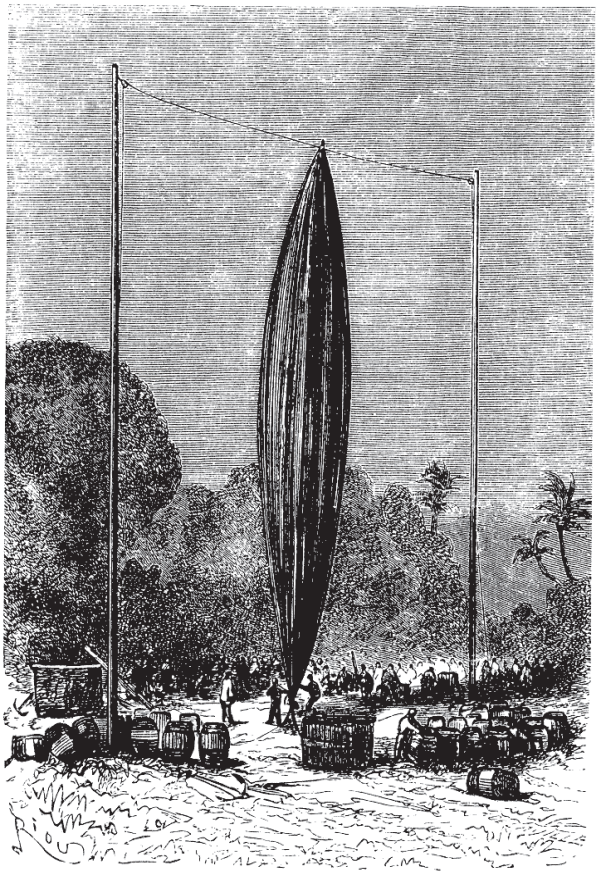
أجاب ساموئيل: أي نعم مشاة، ولا يخفى عليك أيضًا أن السيد دي هكلن، وكيل قنصل النمسا في الخرطوم، رتب قافلة ذات أهمية للرحيل إلى أواسط إفريقية، وجل قصدها أن تطلب المسافر، وجل الذي أُرْسِلَ إلى السودان سنة 1853م ليشارك العلَّامة برث باكتشافه، وفي سنة 1856م رحل من برنو، وقصد اكتشاف ذلك الإقليم المجهول الواقع بين بحيرة شاد ومملكة درفور؛ فمنذ ذلك الوقت لم يسمع عنه خبر، ولم يُرَ له أثر، فأرسل بعض الناس كتبًا إلى الإسكندرية يقولون فيها إنه قتل بأمر ملك الواداي في بلاد السودان، ولكن كَتَبَ العلَّامة هرمان كتابًا إلى أبي وُجِل يقول له فيه إن ابنه لم يمت، بل على ما قرره بدوي من برنو أن رجلًا ألقى القبض عليه في «دارة» وبقي هناك أسيرًا، وقد تألَّفَتْ جمعية لطلبه وسافر وفدها في شهر حزيران الماضي.

فقال ديك: وحيث جميع الأمور سائرة على قدم النجاح والإتقان فما لنا من الشغلة في تلك الأقاليم والبلدان.

فلم يجب ساموئيل عن هذا الكلام، بل تحول عنه وانصرف وهو يهز بأكتافه.

الفصل الخامس

في خادم العلَّامة ساموئيل وزنة المسافرين



وكان للعلامة ساموئيل خادم اسمه يوسف، وهو شاب أديب ذو أوصافٍ حسنى، إذا أمره مولاه بقضاء حاجةٍ لباه بالنشاط والأمانة، وقد نهج في صدقه نحو سيده طريقة غير مطروقة، وأتاه على رغباته بهمة غير همة وخليقة غير خليقة، أشبه بالعبراني الأمين الذي أرسله يشوع بن نون ليجتس أرض الكنعانيين، وكان العلَّامة يترك له التدبير في مهامه وخدمه، لأنه صاحب ذوقٍ لطيف، ولا يتهامل في أمر من الأمور.

ومن العجب العجاب أن يوسف لم يكن يراجعه في أحكامه أصلًا، بل إذا تفوه ساموئيل بكلمةٍ رعاها بدقة وتَحَرٍّ وكل ما فكر به ساموئيل كان لدى يوسف مصيبًا، وكل ما قاله كان أريبًا، وكلما أمره به كان مرعي الإجراء، وكلما نحا نحوًا كان مستطاعًا، وكل ما تمم أمرًا كان لديه من العجائب والغرائب فلو تقطع يوسف إرْبا ما رضي قط في حياته أن يخالف سيده في أمر البتة.

ولهذا لما خطر ببال فرغوس الرحيل على أجنحة المركبة الهوائية، وعلم به يوسف، طابق رأيه بذلك دون ممانعة، وتحقق أنه يسافر مع سيده، لأنه كان خفيف الحركات والأطوار، ويساعد ساموئيل في أمور كثيرة ذات أهمية جزيلة، وقد طالما اتبعه في أسفاره العديدة، وكان من آرائه الغريبة استصواب الأمور جميعها، واستهوان المصاعب والمتاعب، ولم يعلم قط في زمانه جنس التَّشَكِّي والتذمر، ومن صفاته أيضًا القوة في جسمه، والتبصر في الأمور وعدم افتخاره بجميع محاسنه وشمائله؛ فلما كان هذا الخادم منقادًا لسيده، وقد طابقه على رائه في رحلته، فلا عجب فيما جرى من الجدال والمناقشة بينه وبين ديك، لأن أحدهما كان واقعًا في اليقين الأعمى، والآخر في الشك والارتياب، والعلَّامة فرغوسن كان بين الشك واليقين، غير أنه لم يعبأ لا بهذا ولا بذاك.

ففي ذات يوم قال الخادم لديك: يا سيدي!...، وكيف أحوالك؟... ألا ترى أننا عن قريب نرتقي إلى طبقات العلاء لنبلغ القمر؟!

قال ديك: أتعني عن المصر الملقب بجبال القمر؟...؛ فإنه أقرب من القمر، ومع ذلك لا يخلو بلوغه من المصاعب والأخطار.

قال الخادم: وهل مع العلَّامة ساموئيل تقوم المصاعب؟!...، وهلَّا تعلم أنها تتبدد أمامه كغيم جهام.

قال ديك: أقول قولًا لا يخشى عليه من نكير: إن معاناة مولاك لهذه الرحلة ضرب من الجنون.

قال الخادم: كيف ولم تر مركبة سيدي وقبته في معمل الخواجات متشال

الواقعة في ضاحية هذه المدينة.

قال ديك: معاذ الله أن أنطلق إلى هناك لأشاهد مثل هذا المشهد.

قال الخادم: ولعمري؛ يفوتك منظر جميل جدًا، لأنه ما من شيء أجمل من تلك القبة الحريرية، أو أحلى من ذلك القارب المعلّق بها ليحملنا براحة تامة.

قال ديك: إذًا من نيتك الثابتة أن ترافق مولاك في رحلته.

قال الخادم: وهل أتركه وحده طائرًا في طبقات العلاء؟!... وإلَّم أتبع مولاي ساموئيل فمن يأتي بيده إذا حاق به الويل؟...، ومن يمد له ساعده ليجوز مهواة؟...، ومن ينظر إليه ويرمقه بعين الملاطفة والمواساة إذا أصابه المرض واعتراه السقم؟!...، ولعمري، ما دمت حيًا، فلا أزال محيطًا بمولاي لأداره مداراة الإنسان للعين.

قال ديك: يالك من شهمٍ فريد عصرك!...، ويوسف وحيد مصرك!

قال الخادم: أليس مرادك مرافقتنا في هذه الرحلة؟

قال ديك: لا شك في ذلك؛ قلت لا شك في أن أرافقكما في رحلتكما إلى زنجبار، وأبذل وسعي في صد ساموئيل عن ارتكاب هذه الجريرة.

قال الخادم: لعمري إنك لن تصده بتةً عن قصده، لأن مولاي ليس بإنسان محشو مخاخه بطعم الخزعبلات، بل إذا قصد أمرًا ترواه من جميع أنحائه، وقد فعله لا محالة، والمحتال بنفسه مع حيله لا يوقفه عن إجرائه.

قال ديك: إن شاء الله عن قريب يخيب أملك.

قال الخادم: وعلى كلٍ لا يخيب أمل حضرتك، لأنه يكثر الصيد في بلاد إفريقية وأنت من الصيادين المشهورين، فلابد من أن تجد هنالك ما يسرك ويطربك.

قال ديك: إن ما يسرني ويطربني هو أن يرجع العلَّامة عن غيه، ويرعوي عن ضلاله.

قال الخادم: ولكن لا خفي عليك أن اليوم يوم الزنة.

قال ديك: وما الزنة؟!

قال الخادم: لابد أن مولاي يزن ثقلنا، ليرى ما نعادله من الأرطال.

قال ديك: لاحول ولا قوة إلا بالله العظيم!

قال الخادم: ولا تخاف من أنه يطلب منك قلة تناول الطعام لترق وتخف إذا وجدك ثقيلًا.

قال ديك بعيد أن يزنني؟!

قال الخادم: ولكن الباين أن ذا الأمر ضروري لمسير مركبته.

قال ديك: ومالي ومركبته؟!.. عسى أن يعتريها بسببي داء المفاصل أو الفالج.

قال الخادم: وإذا أصابها هذا الداء فلا يمكنا الارتقاء.

قال ديك: هذه رغبتي وطبق منيتي.

قال الخادم: وأنت تقول ذلك لأن مولاي ليس هنا، ولكن إذا أتاك في هذه الساعة، وقال لك من بعد أداء الإكرام: تفضل للميزان، فأجيب عنك أنك حاضر للذهاب في الساعة والدقيقة.

قال ديك: حاشى؛ فإني لا أرضى بالميزان أصلًا.

وفيما هما خائضان بحر هذه المناقشة إذ دخل العلَّامة ونظر إلى ديك، فكان هذا معبسًا بوجهه، فقال له: تفضل يا ديك، أنت ويوسف، لأن مرادي أن أرى كم تعادلان اثنانكما من الأرطال، فأراد ديك الاستدراك.

فقال لهُ ساموئيل: ائت والبرنيطة على رأسك ولا تخف.

فاتبعه ديك ولم ينطق بكلمة، وسار ثلاثتهم إلى معمل الخواجات متشال حيث كان الميزان المعروف بالميزان الروماني منتصبًا، وفي الحقيقة كان مراده وزن رفقائه ليعرف ميزانية مركبته، فصعد ديك على لوح الميزان فسمعه العلَّامة يقول بصوت منخفض لا بأس بذلك؛ فإن الميزان لا يقدم ولا يؤخر في المسألة، ثم قال العلَّامة بصوت عالٍ: وزن ديك خمسة وعشرون رطلًا، وسطر ذلك في دفتره.

فسأل ديك: أليس ثقلي بزائدٍ؟

فأجابه الخادم، وقال: كلا، وهب أنك ثقيل فأنا خفيف، وهكذا أعوض عن ثقلك.

ثم صعد يوسف بخفةٍ، ووقف منتظرًا الحكم، وإذا بصوت العلَّامة يقول:

عشرون رطلًا.

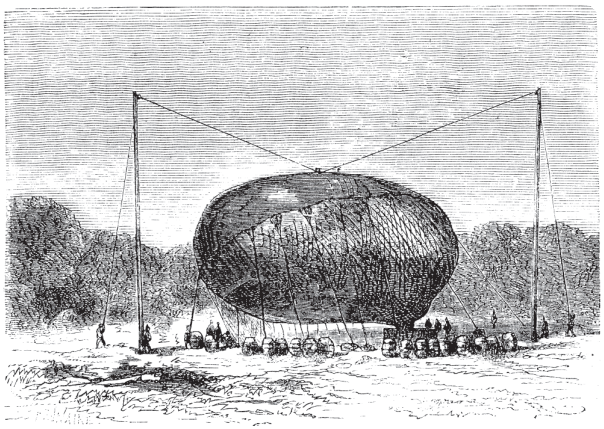
ثم طلع بنفسه وقال: الآن دوري، وسطر لحسابه اثنين وعشرين رطلًا.

قال الخادم: وإذا لزم الأمر لرحلتك يا مولاي؛ فإني لا أتناول طعامًا لأُنْقِصَ من ثقلي ثلاثة أو أربعة أرطال.

قال العلَّامة متبسمًا: لا فائدة في قلة أكلك يا شابًا أمينًا، وعليه خذ؛ فهذه حصتك- وأعطاه ريالًا- لتأكل بها ما شئت وتشرب أيضًا.

الفصل السادس

في تفاصيل المركبة الهوائية من القبة والقارب والآلة السرية وتجهيز
حاجات الرحيل الضرورية



فلا غرو في أن المركبة الهوائية قد أشغلت بال العلَّامة ساموئيل ليلًا ونهارًا، ومازال عاكفًا على تجهيزها وترتيبها بإتقان، لئلا يطرأ عليها في العلاء حادث من طوارق الحدثان، فعزم في أول وهلةٍ على أن يقبب القبة الحريرية بغاز الإدروجن، أحد عنصري الماء، وهو أخف من الهواء بأربع عشرة مرة ونصف، وحصول هذا الغاز سهل جدًا، وهو ما أجدى المركبات الهوائية نفعًا جزيلًا في ارتقائها إلى الطبقات العلوية.

فعلى ما حسبهُ ساموئيل بتدقيق، ظنَّ أن لوازم رحلته التي ينبغي عليه أخذها في المركبة تتطلب ثقل نحو 666 رطلًا، فأخذ يبحث كيف يجهز القبة الهوائية، لتتمكن من حمل هذا الثقل، وما يقتضي أن يكون وسعها.

أما ثقل 666 رطلًا فتوازي وزن 44848 قدم هواء مكعب، أو 1661 مترًا مكعبًا، فإذا أوسع القبة الهوائية 1661 مترًا مكعبًا، وملأها غاز

الإدروجن عوضًا عن الهواء، وغاز الإدروجن أخف من الهواء بأربع عشرة مرة ونصف، فيبقى خلل في الميزانية، وقدره 620 رطلًا؛ إذ إن غاز الإدروجن لا يزن سوى 46 رطلًا، وهذا الفرق الكائن بين ثقل الغاز الداخل في القبة وثقل الهواء المحيط بها هو الذي يُخَوِّل القبة الهوائية قوة الصعود إلى الطبقات العلوية.

ومع ذلك؛ إذا أدخل القبة 1661 متر غاز مكعب امتلأت بتمامها، وهذا لا يوافق بل يأتي بالضرر؛ حيث إن القبة الهوائية بارتقائها إلى الجو تصادف في العلاء هواء أقل ثقلًا من الهواء الكائن على سطح الأرض، فيأخذ الغاز في الاتساع والامتداد فيشق القبة؛ ففي العموم لا يملأ أصحاب الفنون القبب الهوائية غازًا سوى بنسبة الثلثين.

أما العلَّامة ساموئيل فرغوسن فعزم على ألَّا يملأ قبته إلّا بنسبة النصف، وذلك لقصدٍ خفي كان كامنًا في ضميره، وإذ كان في عزمه أن يأخذ معه 1661 مترًا مكعبًا من الإدروجن قد أوسع القبة اتساعًا مضاعفًا.

ثم رتب القبة على الهيئة المستطيلة المفضلة على غيرها، وبلغ قطرها الأفقي 75 قدمًا، وقطرها العمودي 50 قدمًا[1]، فكان وسع هذه الكرة 90 ألف قدم مكعب.

وقد فكر العلَّامة فرغوسن في صنيع قبتين هوائيتين مختلفتي الكبر والاتساع، وجعل الواحدة داخل الأخرى فالصغيرة بلغ قطرها الأفقي 45 قدمًا، وقطرها العمودي 68 قدمًا ووسعها 67 ألف قدم مكعب، وقصد أن

(1) لا يتعجبنَّ القارئ من هذا الكبر الفاحش، فإن العلَّامة منغلفيه صنع سنة 1784 قبة بلغ وسعها 20000 متر مكعب، وكان من طاقتها أن تحمل 20 ألف كيلو غرام.

يجعل لولبا ينفتح من قبةٍ إلى قبة، ليتصل وقت الحاجة بعضها ببعض.

ولهذه الوسيلة فوائد جمة؛ منها إذا أراد إخراج الغاز ليحط على الأرض، فيخرج الغاز الذي تتضمنه القبة الكبرى، حتى وإذا أفرغ بكماله فتبقى القبة الأخرى على حالتها، ويمكن إذا مست الحاجة أن يرمي عنه هذه القبة الكبيرة المثقلة عليه، ويمكث متمسكًا بقوة القبة الثانية، ومنها إذا حدث عارض، أو انخرقت القبة الكبرى، فلا يمس القبة الصغيرة ضرر البتة.

أما القبتان الهوائيتان فصنعتا من القماش الحريري المصلب، ثم دهنتا بمادةٍ صمغية يؤتى بها من الهند، وتعرف عند الإفرنج باسم غُتَّابركا، وهذه المادة تمنع الموائع من أن تتخلل الأقمشة، ولا يمسها أنواع الحوامض ولا أجناس الغاز، وجعل القماش في الأعلى على طاقين حيث هناك القوة الشديدة.

وصنع الحبال لحمل القارب من القنب الشديد الصلابة والمتانة، وقد بذل وسعه في إتقان اللولبين إتقانًا محكمًا، كما يعتني أهل السفن في إحكام دفة المركب.

أما القارب العتيد أن يحمل المسافرين فبناه من الخيزران على هيئةٍ مستديرة، وبلغ قطره خمس عشرة قدمًا، ثم مكنه بلفائف حديدية حوله، فلم يبلغ ثقله مع ثقل الحبال سوى 46 رطلًا.

وصنع العلَّامة أيضًا أربعة صناديق من الصفائح الحديدية، وكانت متصلة بعضها ببعضٍ بمجارٍ ذات لوالب، وضم إلى هذه الصناديق أنبوبة

يبلغ قطرها باهمين، وفي آخرها فرعان غير متساويين، وطول الفرع الأكبر خمس وعشرون قدمًا، وطول الآخر خمس عشرة قدمًا فقط، ثم جعل هذه الصناديق في القارب بنوع مرتب حتى لا تشغل مكانًا واسعًا، وحيث إن الأنبوبة لا تترتب إلّا وقت صعوده إلى المركبة جعلها في مكان منفرد، مع كرةٍ كهربائية، وجميع هذه الصناديق لم يبلغ ثقلها مع ثقل صندوق مملوء ماء سوى 116 رطلًا، أما الآلات التي أراد استصحابها معه فهي ميزانان لمعدل الهواء «بارومتر»، وميزانا الحر والبرد «ترمومتر»، وإبرة لمعرفة الجهة الشمالية «بوصلة»، ومقياسان للوقت «كرونومتر»، وأفق صنعي، وآلة لقيس الأشياء البعيدة.

وعدا هذا جميعه فإنه أخذ للقارب ثلاثة مراسٍ وسلمًا حريريًا متينًا، طوله نحو خمسين قدمًا.

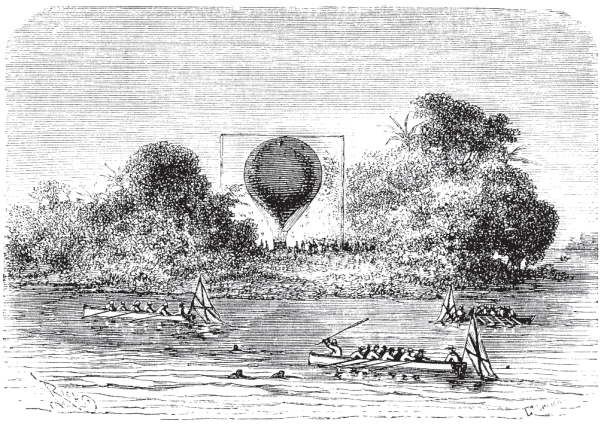
وأما الزاد للأكل والشرب فكان شايًا وقهوة وكعكًا ولحمًا مملحًا، وقليلًا من العرق وماءً عذبًا ثقل مائة ليتر، ومن الواضح البين أن هذا الزاد يجب أن ينقص شيئًا فشيئًا، وبذلك تنقص ميزانية المركبة الهوائية، لأن المركبة إذا نقصها أدنى ثقلٍ عما ركبت عليه يأتيها بتأثير، ولم يهمل العلَّامة أن يأخذ معه خيمة ليغطي بها جهة القارب، ولحفًا لتغطيه الأجسام وقت الرقاد، وبوارید الصياد ديك، مع كمية وافرة من الرصاص والبارود.

فهاك خلاصة تفصيل الأحمال العتيدة، أن تجعل في المركبة الهوائية عدد أرطال:

22 ثقل العلَّامة ساموئيل

25 ثقل ديك كنادي

20	ثقل يوسف الخادم
108	ثقل القبة الهوائية الكبرى
85	ثقل القبة الهوائية الصغرى
47	ثقل القارب والحبال
31	ثقل المراسي والآلات والبوارید
37	ثقل الخيمة وغير ذلك
64	ثقل المأكل والمشرب
66	ثقل الماء
116	ثقل الصناديق الأربعة
46	ثقل الإدروجن
36	ثقل من رملٍ يُستعمل صابورةً
703	الجملة



الفصل السابع

في ركوب السفينة وإيضاح القوة التي ترقي القبة الهوائية وتنزلها حسب المراد

ولما كان نهار 16 شباط وافت السفينة الإنكليزية التي أتينا بذكرها آنفًا، ورست بإزاء غرانويش، وهي متأهبة لقبول العلَّامة فرغوسن ومركبته الهوائية فنقلت إليها المركبة في 18 شباط، وذلك بأنظار ساموئيل لئلا يمس شيئًا ضرر البتة، ثم نقل إليها أيضًا عشرة براميل مملوءة روح الكبريت، وعشرة براميل مملوءة قطعًا حديدية عتيقة، وذلك لأجل إحصال غاز الإدروجن، ولم يهمل أن يصحب مع هذا كله البراميل اللازمة لنشر الغاز، وعددها ثلاثون.

ثم ركب السفينة ورفيقه ديك وخادمه يوسف، أما ديك فمع كونه قسم الأيامين المبرمة أنه لا يريد السفر مع العلَّامة فرغوسن رأيته، يوم ركوب السفينة، نزل إليها وهو مصحوبٌ بخزانة كاملة من سلاح الصيد.

وفي اليوم العشرين صنعت الجمعية الجغرافية الملوكية مأدبة فاخرة

للمسافرين، وحضر هذه المأدبة رئيس السفينة ورجاله، وقد دارت بينهم كأس الندام، فشربوا المدامة بسر الأحباء، متمنين لهم أن يعيشوا السنين العديدة والأيام المديدة وأما ديك فأتته التهاني لرحلته العلوية من جميع الحاضرين في ذلك المحفل؛ فإنهم، بعد أن شربوا بسر فرغوسن ومجد إنكلترة، شربوا بسر رفيقه الشجاع ديك الصياد.

وفيما هم جالسون على مائدة الطعام إذ وفد رسول من الملكة، وبلغهم تهنئتها للمسافرين وتمنيها لنجاح الرحلة الجوية، ففي الحال شرب جميعهم تحية لجلالتها المفخمة، وبعد قليل انصرف كلٌّ إلى مكانه ليستريحوا تلك الليلة.

ولما أصبح الصباح، وكان اليوم الواحد والعشرون، قلعت السفينة من مرساها، وسارت بقدم السرعة قاصدة زنجبار في البحر الأحمر، وفي 15 نيسان، وبعد أن رست في أماكن جمة، وَصَلَتْ إليها بالأمن والسلام.

وفي غضون سفرهم كانت المناقشة قائمة بين الركاب على الرحلة الجوية، وكان يوسف الخادم فرحًا مبتهجًا، ويحدث كثيرًا رفاقه نَوَاتِيَّ السفينة، فقال لهم مرة: إنه بعد رحلتهم سوف يحذو كثير من الناس حذوهم؛ إذ إنه كلما ذاق الناس مثل هذه الأمور زاد ولعهم بها، ونما شوقهم لمعاناتها ومراجعتها، فكما أنهم الآن مسافرون في المركبة بخط منحرف، كذلك يسيرون فيما بعد بخطٍ مستقيم إلى ما أمامهم.

فقال أحد السامعين: ألَا ترتقون إلى القمر.

قال يوسف: حاشى وكلا؛ لست أحب القمر لأنه معروف من الناس، وخال

أيضًا من الماء، فيفضي بنا العطش إلى الهلاك.

فقال أحد محبي العرق: وإذا وجدت هناك عرقًا ألَا تستكفي به.

قال الخادم: كلا؛ لا نريد شيئًا من القمر، بل مرادنا أن نرتقي إلى تلك النجوم السيارات المتلألئة في البقعة السماوية؛ ففي أول وهلة نمر بزحل.

فسأله واحد وقال: هل زحل هو اللابس الخاتم؟

قال يوسف: نعم؛ اللابس خاتم الزواج، ولكن إلى الآن لم يُعْرَفْ ماذا أصاب امرأته المسكينة!

فقفز أحد البحرية الناظر إليه نظرة الدهشة، وقال: أيمكنكم إذًا الارتقاء إلى هذا العلاء؟!... لعمري؛ إن مولاك فاق المحتال قدرةً وحيلة.

قال الخادم: والمحتال بنفسه لا يستطيع على صنيع مثل هذه الأمور.

فقال بحري، وهو ينتظر فرصة للتكلم: وبعد أن تمرُّوا بزحل فإلى أين تتوجهون بالسلامة؟!

قال: نمرُّ بالمشتري، ولله درُّ المشتري؛ فإنها بلاد لا يطول بها النهار سوى تسع ساعات ونصف، وهذا مما يوافق الكسالى.

وهكذا كان يحدث بعضهم بعضًا بالمزاح والهرج، وقد أخذ يوسف يتكلم عن نبتون والمريخ والزهرة أحاديث مضحكة، ومع ذلك مطربة لجميعهم لرشاقة الخادم يوسف، وسكب عباراته المزاحية.

وفي أثناء مناقشته مع البحرية كانت المكالمة سائرة على قدم النجاح بين

الضباط وفرغوسن، بخصوص رحلته ومركبته ومسيرها، فسألوه مرة ماذا يرتأي عن إدارة المركبات إلى حيث يشاء الراكب.

فقال ساموئيل: إني لا أظن أن الناس يتوصلون إلى إدارة المركبات إلى حيث شاءوا، وقد فحصت جميع الهيئات التي ظهرت إلى الآن فلم أر واحدة منها تصلح لذلك.

فأجابه واحد وقال: ألا يوجد نسبة عظيمة بين إدارة القباب الطيارة والسفن البحرية؟

قال فرغوسن: كلَّا يا سيدي؛ فإن النسبة قليلة جدًا، وربما كلا شيء، لأن الهواء أخف من الماء بما لا يحد فالسفينة لا تغطس كلها في الماء بل نصفها، وأما القبة الهوائية فتخوض في الجو خوضًا تامًا، وتبقى غير متحركة بالنسبة للسيال المحيط بها.

قال واحد: وهل تظن إذًا أنه غير ممكن اختراع شيء جديد بهذا الخصوص، بواسطة العلوم الطبيعية؟

قال: كلا ثم كلا، غير أن أصحاب العلوم يبحثون عن شيء آخر، وهو أن يستمر راكب المركبة الهوائية ثابتًا في الطبقات الهوائية في الجو الموافقة لغرضه، لأن الهواء في بعض الأماكن العالية يكون متساويًا وثابتًا في اتجاهه، ولا تغيره الأودية والجبال المتكاثرة على وجه الكرة الأرضية، ولا يخفى عليكم أن تغيير الهواء وعدم مساواة مهبه هو مسبب عنها في الغالب، فإذا ما علا المرء هذه الطبقات، وتوصل إلى الأعالي، فحينئذ يتوقف عند الطبقة الموافقة لغرضه كما أشرت.

فقال رئيس السفينة: والحالة هذه لكي يتوصل إليها الراكب لا يقتضيه سوى الصعود والنزول وهنا الصعوبة كلها.

قال فرغوسن: ولماذا؟!

قال السردار: مآل كلامي أن هذه الصعوبة أو المانع لا يكون إلَّا للأسفار الطويلة، وليس للرحلات القصيرة المقصود بها التنزه وانشراح الخاطر.

قال فرغوسن: أكرم عليَّ بإيرادك سبب ذلك!

قال السردار: لأنه إذا أراد المسافر في هذه القباب الطيارة الصعود إلى العلا لزمه إلقاء بعض ما يكون حامله من الثقل، وإذا أراد النزول لزمه أن يفقد شيئًا من الغاز وعلى هذا المنوال لا تمضي مدة إلَّا ويفرغ زاده؛ إن كان من الغاز أو كان من الثقل.

قال فرغوسن: هنا معظم المسألة؛ فإن المباحثة ليست واقعة في هذه الأيام عن إدارة المركبات حيث يراد، ولكنّ جلَّ البحث قائم في الصعود إلى العلاء والنزول إلى الأرض من دون أن ينقص غاز الإدروجن الذي تحويه القبة؛ أي من دون أن يخسر شيئًا من قوة القبة الهوائية.

فقالوا: ولكن ألم يكتشف أحد بعد هذه الواسطة؟

قال ساموئيل: بلى.

قالوا: ومنو الذي اكتشفتها؟

قال هذا الداعي: ولو أني اكتشفتها ما كنت حملت نفسي على المرور

بإفريقية؛ لأني لا أسير مدة أربع وعشرين ساعة إلَّا ويفرغ الغاز من قبتي.

قالوا: ألم تتكلم عن ذلك في بلاد إنكلترة؟.

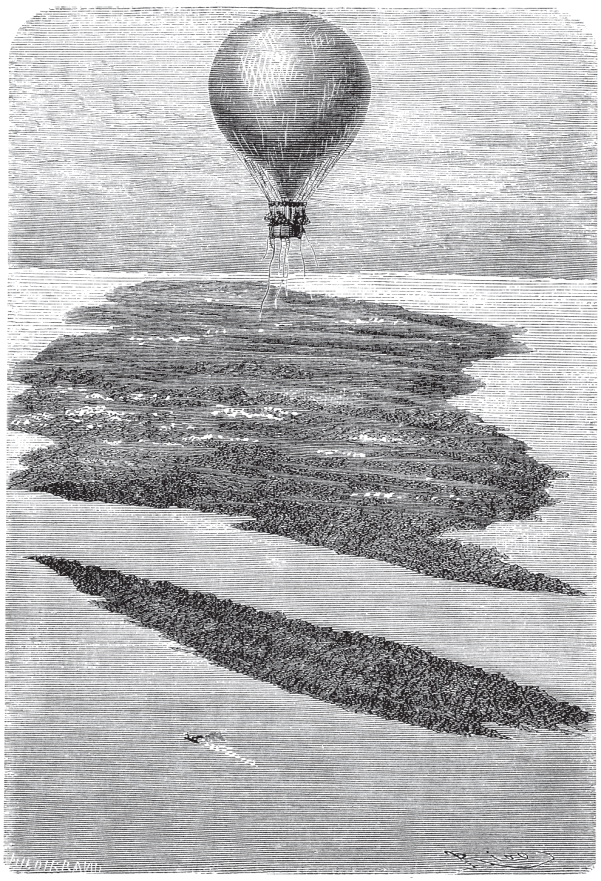
قال: كلَّا؛ بل ما زلت لسري كاتمًا، وقد امتحنت الأمر بنفسي وتأكدت الفلاح، فما الحاجة للتكلم عنه؟

قالوا: أتكرم علينا بكشفك لنا هذا السر؟

قال: سمعًا وطاعة، ثم بدأ في الكلام، وأخذ الحاضرون يصيخون سمعًا لخطابه.

الفصل الثامن

في المعنى المتقدم ذكره



قال ساموئيل: قد طالما أراد أصحاب الفنون إيجاد واسطة للارتقاء والنزول في المركبة الهوائية دون أن يخسر الراكب غازًا، أو يرمي من الثقل الذي نقله معه فأعياهم تفتيشهم وذهب سعيهم هدرًا.

أما الواسطة التي اكتشفتها أنا فهي متوقفة على أن أَبْسُطَ الغاز الموجود ضمن القبة، وأضغطه حسبما أريد الطلوع، أو النزول، وذلك بواسطة الحرارة أو البرودة، وهاكم كيفيةَ العمل.

لابد أنكم بصرتم مع المركبة بخمسة صناديق لا تعرفون ماذا يفيد استعمالها؛ فإن الصندوق الأول يحوي مائة ليتر ماء، وإليها أضيف بعض نقط روح الكبريت لتزيد كهربائيتها، وكما لا تجهلون فإن الماء مركب من عنصرين: عنصر الإدروجن وعنصر الأكسيجن فبواسطة الآلة الكهربائية التي أستعملها، وهي معروفة باسم صفائح بنتزن ينسرب

الأكسيجن إلى صندوق ثانٍ، ويدخل الإدروجن في صندوق ثالث، وهذان الصندوقان يتصلان بصندوق رابع يدعى صندوقَ المزج، ووصيلتهما لولبان مختلفا الضخامة، وفي هذا الصندوق يمتزج الغازان الناشئان عن انحلال الماء ووسع هذا الصندوق 41 قدمًا مكعبًا، وفي أعلاه قصبة من النحاس الأبيض لها أيضًا لوالب.

وليكن معلومًا عندكم أيها السادة أن آلتي ما هي إلَّا شكل قصبة يُحْصَر فيها غاز الإدروجن والأكسيجن، وتضرم نارًا مستعرة اللهيب، أشد تأججًا من نيران أكوار الحدادين، وإذ تقرَّر ذلك نأتي بذكر الجزء الثاني من الآلة.

فمن أسفل القبة الهوائية المغلقة غلقًا محكمًا يخرج أنبوبتان مفترقتان؛ الواحدة عن الأخرى بمسافة جزئية، فالأولى تبتدئ من وسط طبقات غاز الإدروجن العليا والأخرى من الطبقات السفلى، وكلاهما ينزلان إلى القارب، بل إلى داخل صندوقٍ من حديد ذي هيئةٍ عمودية، اسمه صندوق الحرارة وهذا الصندوق مغلق بطرفيه بدوائر حديدية أيضًا.

فالأنبوبة البارزة من طبقات القبة السفلى تدخل في هذا الصندوق العمودي من الدائرة التحتانية، وتتلوَّى داخله على هيئة البرغي، وقبل أن تخرج من الصندوق تتوجه إلى مخروط ذي دعائم مجوفة على شكل طاسٍ كريّ، ومن أعلى هذا المخروط تخرج الأنبوبة الثانية، وهي تتجه إلى طبقات القبة العليا كما ذكرته آنفًا، وهذا الطاس الكري معمول من الذهب الأبيض، لئلا يذوب بقوة القصبة؛ حيث إنها موضوعة في عمق الصندوق الحديدي، في وسط الأنبوبة المتلوِّية على هيئة البرغي، وطرف

لهيبها يمس هذا الطاس الكري.

فكل ما ذكرته لكم أيها السادة ليس هو إلَّا شبه المدخنة المعروفة منكم، وهي المستعملة لتدفئة المخادع، ولا يخفى عليكم كيف أن هواء المخدع يمرُّ بالأنابيب ويستحرُّ فيدفأ المخدع.

وهكذا يصير في آلتي؛ فإن القصبة إذا سخَّنت الإدروجن الكائن في الأنبوبة يسخن الطاس الكريّ، ويصعد الإدروجن بسرعة إلى الأنبوبة المتوصلة إلى وسط القبة الهوائية، ثم يحصل الخلا من أسفل، ويجذب بذلك غاز الطبقات السفلى، فيسخن هذا بدوره ويصعد إلى أعلى ويقوم مقامه، وهكذا يتكون بين اللوالب والأنابيب مسير غازٍ سريع جدًا، يخرج من القبة ويرجع إليه فيزيد حرارة.

والحال أن الغاز يزيد جرمًا 1/480 في كل درجة من درجات الحرارة، فإذا تأجج لهيب الحرارة بثماني عشرة درجة ينبسط الإدروجن بقيمة 18/480 أو 1664 قدم مكعب، فهذا يزيد قوة القبة للصعود بست وعشرين رطلًا، وإذا رفعت الحرارة إلى 180 درجة ينبسط الغاز بمعدل 18/480 فيقوم مقام وسع 1670 قدم مكعب، وتزيد قوة صعودها بمائتين وستة وستين رطلًا.

فمن هذا ترون أنه يحدث فرق عظيم في ميزانية القبة الهوائية، مع أني أزمعت أن أقببها بمعدل النصف بنوع من الهواء الذي يقوم مقامه الإدروجن، يعادل قماش القبة ومحمولها من المسافرين وما يقتضيه السفر من اللوازم الضرورية والحالة هذه فإن القبة تساوي ميزانية الهواء؛ أي إنها لا تصعد في العلا ولا تنزل من تلقاء نفسها.

فلكي أصعد أرفع الغاز إلى درجة حرارة عالية بواسطة القصبة؛ فمن زيادة الحرارة يمتد غاز الكرة الهوائية وتتقبب وترتقي إلى العلاء.

وأما وقت النزول فإني أخفف حرارة القصبة؛ فالارتقاء كما ترون يكون أسرع من النزول، وهذا من الفوائد؛ حيث إن الأخطار هي على الأرض وليس في العلاء، ومع هذا كله فإني حملت كمية من الثقل حتى إذا لزم الأمر ألقيته خارجًا لأرتقي بسرعة، وأما اللولب الكائن في أعلى المركبة فلا أمسه، بل تبقى القبة الهوائية حافظة الغاز الذي أملؤها به، وما أحدثه من الحرارة والبرودة في هذا الغاز هو الذي يرفعني وينزلني.

ولزيادة الإيضاح أقول: إن من احتراق الإدروجن والأكسيجن في طرف القصبة يحصل بخار الماء، فوضعت في طرف الصندوق العمودي أنبوبةً لها لولب، إذا انضغطت ارتفع منها البخار.

وهاكم الأرقامَ بالتمام:

إن مائة واثني عشر ليتر ماء إذا انحلَّ عنصرها أحصلت 33 رطلًا من الأكسيجن، وأربعة أرطال من الإدروجن، فيكون ذلك بمعدل 70 مترًا مكعبًا من الأكسجين و140 مترًا مكعبًا من الإدروجن، وبمزج العنصرين يكون 210 أمتار مكعبة.

فإذا فتح لولب القصبة فتحًا تامًا يشعل قَدْر متر مكعب في الساعة، واللهيب يكون أشد سعيرًا من لهيب الأنوار الغازية بست مرات؛ ففي المعدل الأوسط إذا لم أرد أن أرتفع إلى علو باسق لا أوقد إلَّا قدر ثُلث متر مكعب في الساعة، فالمائة والاثنا عشر ليتر ماء التي ذكرتها تكفيني إذًا

لسفر ستمائة وثلاثين ساعة، أو نحو ستة وعشرين يومًا.

والحال بما أني أتمكن من النزول أينما شئت فأستطيع أن أتزود ماء، ويستمر سفري قدر ما أشاء.

فهذا هو سري أيها السادة الكرام؛ فإنه سهل جدًا، ويتكلل بالنجاح إن شاء المولى، وواسطتي الوحيدة هي امتداد الغاز وتقلصه، وهذا لا يلزمه محرك آلتيّ، كالأجنحة أو خلافها، بل إن هي إلا مدخنة أغير بها الحرارة، وأقيم مقامها البرودة وبالعكس ثم قصبة لتسخين المدخنة وأظن أني جمعت بذلك كل ما يلزم لنجاح رحلتي.

فإني سيد قبتي ومولاها؛ لأني أصعد متى شئت وأنزل متى شئت وأقف متى ما شئت، وخصوصًا إذا تهددتني مهبات الرياح باندفاعي إلى أماكن لا توافقني.

فقال السردار: وستلقي منها ما يدفعك في برهة ساعة إلى مسافة مائتين وأربعين ميلا.

قال فرغوسن: فترى هكذا أنه بهذه السرعة يجوز الإنسان إفريقية في مدة اثنتي عشرة ساعة فإنه ينهض من فراشه صباحًا في زنجبار ويذهب لينام في مدينة سن لويس في الجهة المقابلة.

فقال ضابط: وهل يمكن أن تدفع القبة الهوائية بسرعة كهذه؟!

قال فرغوسون: وقد جرى ذلك في الامتحان.

قال الضابط: وهل لم يمس القبة ضرر؟!

قال فرغوسون: كلَّا، وقد جرى ذلك عند تكليل نابوليون الأول سنة 1804م؛ فإن العلَّامة غرنرين رفع قبة هوائية من باريز الساعة الحادية عشرة مساء، «قبل نصف الليل بساعة»، وكان مكتوبًا على تلك القبة بأحرف ذهبية العبارة الآتية: باريز في 25 فريمير، «هو شهر لمشيخة أفرنسة، بدؤهُ من 21 تشرين الثاني أو 22 حسب السنين» من السنة الثالثة عشرة لتكليل الإمبراطور نابوليون الأول.

ففي الغد صباحًا الساعة الخامسة، «قبل الظهر بسبع ساعات»، شاهد سكان رومة تلك القبة الهوائية تحوم فوق الواتيكان، وبعد أن طافت حول الحقول برهة سقطت في بحيرة براشيانو؛ أفرأيتم إذًا أيها السادة أن القبة الهوائية تعادل هذه السرعة العجيبة؟

فقال ديك: نعم يا أيها العلَّامة؛ فإن القبة توازي هذه السرعة، وأما الإنسان فلا يتمكن من ذلك.

قال فرغوسن: ولماذا؟!... فإن القبة الهوائية غير متحركة بالنسبة إلى الهواء المحيط بها، وليست هي التي تمشي، بل الهواء نفسه، ولو أشعلت شمعة وسط القبة المذكورة فلم يكن يرتج الضوء قط فيها، ولو فرضنا أن راكبها إنسان فلم يكن يذوق أدنى اضطراب أو اختلاج، وأما أنا فليس من نيتي أن أمتحن مثل هذه الأمور، بل أينما لقيت شجرة عالية أرسيت مركبتي عندها، وبت ليلتي كلها، وقد حملنا زادًا يكفينا مدة شهرين، وإذا طالت معنا الرحلة أكثر من ذلك فإن معنا صياد مشهور يغنينا بزاده إذا أُشْغِلَ قليلًا.

قال أحد الضباط، وهو ينظر إلى ديك: سوف تشتهر في تلك البلدان

بصيدك يا سيدي.

فقال آخر: وفضلًا عمَّا تشعر من اللذة وقت الصيد فإن مساعيَك سَتُتَوِّجك بتاج النصر والمجد.

فقال ديك: أيها السادة أتشكر ... معروفكم ... على تهنئتكم إياي، ولكني لست أقبلها ...

فقال كثيرون سوية: فإذًا لست بعازم على الرحيل.

قال: كلَّا.

فقال واحد: ولا تصحب العلَّامة فرغوسن.

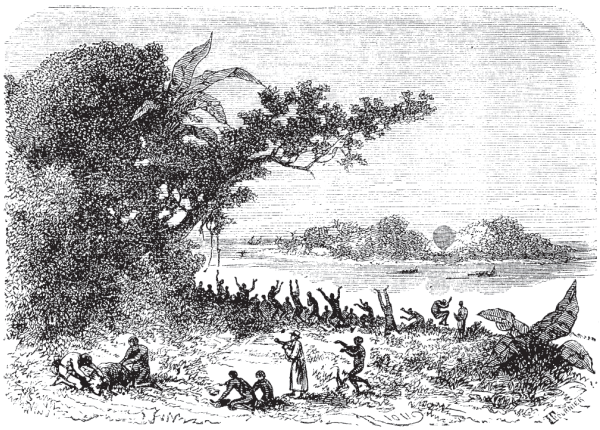
قال: ليس فقط لا أصحبه، بل إنني أتيت معه لأصده عن مقاصده.

فنظر جميع الحاضرين حينئذٍ إلى العلَّامة فرغوسن، كأنهم يستفهمون منه عن رائه في ذلك، فقال ساموئيل: لا تلتفتوا إليه ولا تجادلوه عن ذلك، لأنه يتظاهر أنه لا يريد السفر، ولكن في قلبه يعرف جيدًا أنه يسافر بلا شكٍ.

فصاح ديك وقال: وحياة رأسك سأفعل .. وأصدك ...

فأردف فرغوسن قائلًا: لن تفعل شيئًا يا ديك لأنك معيَّر وموزون بجسمك وبارودك وبواريدك ورصاصك، فأرجوك إذًا ألَّا تقول شيئًا.

فسكت ديك ولازم الصمت مذ تلك الدقيقة إلى حين وصوله إلى زنجبار، ولم يعد يتكلم عن رحلته ولا عن شيء آخر.



الفصل التاسع

في وصول المسافرين إلى زنجبار وارتقاء القبة الهوائية إلى الطبقات العلوية

وكانت الريح موافقة لمسير السفينة، ومياه البحر رائقة لا يهيجها هائج، فكان أهل السفينة يتفاءلون بهذا على أن الرحلة الجوية تكون طبق الرحلة البحرية انتظامًا وهدوءا، وقد عِيلَ صبرُ الملاحين لينظروا تلك الساعة التي فيها يركب العلَّامة ورفقاؤه المركبة الهوائية، ولما دخل اليوم الخامس عشر من شهر نيسان أرست السفينة في مينا زنجبار، وهي مدينة في جزيرة اسمها زنجبار أيضًا، وكان ذلك قبل الظهر بساعة.

أما جزيرة زنجبار ففي زمام إمام مَسْكات، حليف الدولة الفرنسة والإنكليزية، ويطرق ميناها سفن عديدة من البلاد المجاورة لها، وهي مفروقة عن بَرٍّ إفريقية ببرزخ ليس بمُتَّسِع، وسكانها يتاجرون بالفراء والعاج وخاصة بخشب الأبنوس وهذه البلاد أيضًا مقر لمبيع العبيد، وسوقهم رائج فيها، لأن فيها تحتشد الغنائم التي يكتسبها رؤساء أقوام إفريقية الوسطى بمحاربتهم بعضهم بعضًا، ويعرضونها للبيع، وهذه

التجارة ممتدة جدًا حتى عند أرياف النيل[1].

فعند وصول السفينة إلى زنجبار أسرع قنصل الإنكليز لاقتبال العلَّامة فرغوسن في منزله، لأنه كان عارفًا بمقصده بمطالعته الصحف الأوربية، وهو من جملة الذين أدخلوا رحلته في طي الخزعبلات والخرافات وأول ما شاهد العلَّامة وقرأه السلام قال له: كنت في شكٍّ وعلى ريب من رحلتك، ولكن تبين لي الآن أنك مزمع على تنفيذ إرْبك فزال مني الشك وتحققت نجاح مصلحتك.

فطلب العلَّامة من القنصل استعلامات عن القبطان أسبيك السائح الإنكليزي، فبلغه القنصل تحاريره، ورأى أنه متعذب جوعًا وعياء وبالكاد يمكنه أن يقدم في المسير على الهويناء.

فقال حينئذٍ ساموئيل: إننا بحوله تعالى سنتجنب هذه الأخطار والويلات، ولا نرى منها ما يُنغِّصُ رحلتنا.

ولما تأهب العلَّامة لتنزيل قبته الهوائية من السفينة بلغ بعض الناس القنصل ألَّا يفعل ذلك في المدينة، لأن سكانها يمانعونها بالقوة الجبرية ولعمري لا شيء أقبح من الشهوات المتعصبة تعصبًا لا طائل تحته؛ فإنه لما عرف سكان الجزيرة بقدوم رجل مسيحي يريد أن يطير في الجو غضبوا أو حنقوا وهاجوا وماجوا، أما الزنج فأخذ منهم الغضب أشد مأخذٍ من العربان، لأنهم رأوا بهذه الرحلة ما ينافي دينهم وظنوا أن القبة تطير قاصدة الشمس والقمر وتضر بهما، ويفعل راكبوها بهما ما شاءوا؛

(1) إن أهل الخير ساعون كثيرًا في هذه الأيام في نسخ هذه العادة السيئة التي يستنكف منها كل قلب سليم، وقد نجح مسعاهم؛ إذ حُرِّمت تلك التجارة شرعًا، ووضع قصاص على المخالفين.

فكيف يتركون ذا الأمر، والشمس والقمر لديهما بمقامٍ سامٍ، واعتبارٍ فائق، فصمموا النية على مقاومة هذا العمل بجميع قواهم وحرفهم.

ولما علم القنصل بجميع ذلك أطلع العلَّامة وقبطان السفينة عليه، أما قبطان السفينة فقال: لا يمانعنا شيء ولا نخشى أحدًا، فقال له القنصل: يا صاح!... إننا نفوز بالنصر والغلبة على العربان والزنج، وخاصة لأن عسكر الإمام يمدون لنا ساعد الإسعاف، ولكن لا يخفى على حضرتك أن سهمًا واحدًا إذا أطلق على القبة أذهب بقوتها وفاعليتها وبطلت الرحلة، فيلزم إذًا أن نتصرف بتأنٍّ واحترازٍ، علَّنا نبدد هذه المصاعب ونزيلها.

قال القبطان: وما العمل؛ فأينما أردت أن تركب تجد نفس المانع؟!

قال القنصل: لا شيء أسهل من أن تنقلوا القبة إلى الجزائر الصغيرة التي ترونها بعيدة عن هذه المدينة، وهناك لا يصدكم أحد البتة.

قال ساموئيل: هذا رأي صحيح؛ فإننا هناك نبقى أحرارًا، لا يستعبدنا العبيد بأهوائهم الخسعة.

وبعد ذلك الحديث توجهوا حالًا ونزلوا جزيرة كمبني، وجعلوا القبة في بقعة فسيحة وسط غاب، ثم صنعوا صاريين كبيرين؛ يبلغ طول الواحد منهما ثمانين قدمًا، ووضع الواحد بعيدًا عن الآخر بمسافة طول الصاري، وفوقهما البكرات وعليها الحبال، وهكذا رفعوا القبة، وكانت إذ ذاك غير منفوخة، والقبة الصغيرة داخل القبة الكبيرة، وترتفع كما ترتفع هذه، وأدخلوا الأنبوبة التي منها يدخل الإدروجن عند طرف كل من القبتين، وأما اليوم السابع عشر من الشهر المذكور فقضوه في تجهيز

الآلة لإحصال الغاز، وكانت مؤلفة من ثلاثين برميلًا، وفيها يحل الماء ببرادة الحديد والحمض الكبريتي «اسيد سلفريك» الموضوعين في كمية وافرة من الماء، والإدروجن يصل قبلًا إلى برميل في وسط البراميل بعد أن يغسل في طريقه، ومن هناك ينفذ في الأنابيب حتى يصل إلى القبة، وهكذا تمتلئ القبتان بكمية محدودة من الغاز.

وقد تطلب هذا العمل ثلاثة آلاف ومائتي ليتر من الحامض الكبريتي، وألفين وستمائة وثلاثة وسبعين رطلًا من الحديد، وواحدًا وأربعين ألفًا ومائتي ليتر من الماء، فابتدءوا به في الليلة التابعة، واستمر نحو ثماني ساعات، وفي الغد كانت تتمايل القبة في الهواء فوق الزورق، وقد ثقل عليها بأكياس كثيرة من الرمل.

ثم رفع العلَّامة آلته لامتداد الغاز وانقباضه باعتناء جزيل، وبعد ذلك وضعوا في الزورق لوازم السفر كما ذكرناها قبلًا.

وقد تم هذا الشغل نحو الساعة العاشرة من النهار، وكانت الحراس تسهر حول الجزيرة لئلا يطرقها أحد من العبيد أو من العربان.

أما الزنج في جزيرة زنجبار فكانوا يصيحون بأصوات الغضب والحنق، ويطوف السحرة فيما بينهم، ويبثون فيهم روح الغضب، وأراد بعض المتعصبين أن يأتوا الجزيرة بالسباحة، لكنهم منعوا عن ذلك حالًا.

وبدأ الرقاؤن والسحرة حينئذٍ في المناداة إلى السماء لتنزيل الأمطار والحجارة الخرارة، «والحجارة الخرارة بمعنى البَرَد في تأويل أهل زنجبار»، ولإتمام ذلك أخذوا أوراقًا من جميع أصناف أشجار المدينة،

وغلوها على نارٍ خفيفة، وفي غضون الغليان ذبحوا خروفًا وأدخلوا في قلبه دبوسًا كبيرًا، لكن السماء ما زالت رائقة رغمًا عن طقوسهم المضحكة، وما ربحوا إلَّا خسارة الخروف وأتعابهم الباطلة.

فجعلوا وقتئذٍ يشربون المسكرات، ويغني كلٌّ على ميله بدون ترتيب ولا انتظام.

ولما كانت الساعة الحادية عشرة من النهار أخذ المسافرون يتناولون الطعام، وكان جالسًا معهم القبطان وجميع الضابطة، وأما ديك فكان يدمدم في شفتيه ويتمتم بعض الكلمات غير المفهومة، وعينه كانت شاخصة دائمًا بالعلَّامة فرغوسن.

أما الحزن فكان خاطًا رسومه على وجوه جميع الحاضرين، لأن الأفكار أخذت في الانشغال من دنو الساعة العظيمة، وبدأ جميعهم يرددون في فكرهم ما عسى يحل بهؤلاء المسافرين الأبطال، وهل يا ترى يعودون إلى الأوطان ويشاهدون الأخدان، وإذا حلَّ بهم ويل واضطروا إلى النزول بين البرابرة فما تصبح حالتهم.

أما العلَّامة فرغوسن فكان يحاول أن يتخلص من الأسف الذي لاحت لوائحه على جميع الوجوه، لكنه لم يستطع ذلك، فتناقل بعض الكلام مع رفقائه ولكنها كانت عرية من كل رونق وزَهاء.

ولما أمسى المساء ذهب العلَّامة ورفاقه ورقدوا في السفينة، لئلا تصيبهم مصيبة، وعند الصباح والشمس إذ ذاك قد بزغت أشعتها، والنسيم رخيم، نزل جميع ركاب السفينة في الجزيرة، ووقف عشرون ملاحًا عوضًا عن

أكياس الرمل التي كانت ماسكة القبة.

وفي تلك الساعة وقف ديك أمام العلَّامة وخاطبه قائلًا: أعزمت عزمًا ثابتًا على السفر؟

قال العلَّامة: ولاشك في ذلك.

قال ديك: فإني قد بذلت جهدي لأصدَّك عن رحلتك وما بقي عليَّ عتاب ولا لائمة، ولهذا أرافقك في رحلتك.

قال العلَّامة: كنت مؤكدًا ذلك، فلك الفضل الجزيل يا أيها الخليل.

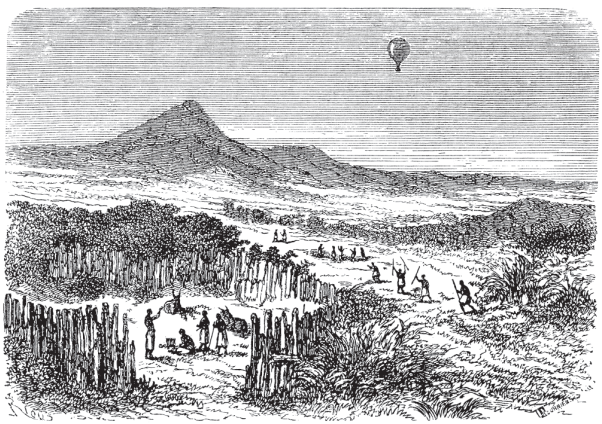
ولما وافت ساعة الوداع تعانق الأصحاب مع الأصحاب، ثم ركب المسافرون المركبة نحو الساعة الثالثة من النهار، فشعل العلَّامة القصبة لتمتد الحرارة وسط القبة الطيارة، وللحال ارتفعت هذه القبة عن الأرض نحو عشرين قدمًا، إذ أرخى الملَّاحون شيئًا من الحبال التي كانوا متمسكين بها.

ثم وقف فرغوسن ورفع البرنيطة عن رأسه، وقال: فلنسمينَّ مركبتنا باسم يوليها الحظ والسعادة ونلقيها المنصورة «فكتوريا»، فصاح الجميع قائلين فلتحيَ الملكة فكتوريا... فلتحيَ إنكلترة.

وإذ نمت قوة الحرارة، وقد ودع المسافرون رفاقهم الوداع الأخير، قال ساموئيل: أرخوا الحبال جميعًا وسوية، فارتفعت المنصورة إلى العلاء، وأطلقت السفينة المدافع إكرامًا لها، وإجلالا للمسافرين، فرنت أصواتها في الآفاق.

الفصل العاشر

في مرور المسافرين في بلاد عديدة ومبيتهم على شجرة الصبَّار فوق جبل دوتومي



ولما ارتفعت المنصورة إلى الأعالي كانت الريح لطيفة والجو رائقًا؛ فعلت نحو ألف وخمسمائة قدم فوق الأرض بخط مستقيم وقد عرف ذلك ساموئيل من انحطاط البارومتر بخمسة سنتميرات تقريبًا[1]، وعند وصولهم إلى ذلك العلو تغيرت الريح قليلًا، ودفعت القبة نحو جنوبي غربي إفريقية.

وكان يتراءى لأعينهم مشهد من أجمل المشاهد؛ إذ إن الحقول بانت متجنسة الألوان والأشكال، والأشجار المتمائلة الأوراق تعجب النواظر، وجزيرة زنجبار كأنها بقعة مستوية الأرض، وسكانها كأنهم هوام، وتتصاعد إليهم أصوات صراخ متواصل من أهل تلك الجزيرة.

فسئمت نفس يوسف من السكوت في تلك الفرصة، فقال: ياله من مشهد

(1) كلما انحط البارومتر سنتمترًا يكون راكب الهواء قد ارتفع مائة متر تقريبا.

جميل؛ تطيب له الخواطر، ويروق للناظر!

فلم يجبه أحد على مقاله، لأن العلَّامة كان مهتمًا بمراقبة التغييرات البارومترية، ويدقق الفحص عن تفصيل صعوده وغير ذلك، أما ديك فكان يحدق النظر، متأملا ذلك المشهد الغريب العجيب، حال وجوده في الفضاء بين الأرض والسماء.

ولما كانت أشعة الشمس شديدة الحرارة وازرت قوة القصبة، فعلت القبة عن الأرض نحو 2500 قدم.

ولم تعد حينئذٍ تبين السفينة لديهم إلّا كقارب صغير، وكانت رغوة البحر الأحمر تخط وحدها التخوم الإفريقية الغربية، والأرض الإفريقية ملطخة ببقع خضراء، فقال يوسف لرفيقيه: ما بالكما لا تتكلمان؟... فأخذ العلَّامة نظارة، وبدأ يتطلع نحو الأرض، وقال: الآن وقت النظر؛ فعلينا أن ننظر ما ينبسط لأبصارنا.

قال يوسف: أما أنا فلا أطيق السكوت.

فقال له سيده: تكلم قدر ما تشاء، فإنك بالكلام جدير.

وعليه طفق يوسف يعبر عما أدركه من الانذهال، بإبراز كل ما يعلمه من ألفاظ الهتاف والعجب.

وفيما هم يجوزون البحر، أراد العلَّامة أن يلثبوا محافظين على ذلك العلو، وكان أمامه ترمومتر وبارومتر فيراقبهما دائمًا، ليعرف على أية حالةٍ هم في الطبقات الجوية، بل ويمعن النظر في هيئة جانب إفريقية الشرقي.

وما مضى ساعتان إلَّا أبلغت الريح القبة الطيارة إلى فوق اليابسة، وأراد العلَّامة أن يقترب من الأرض، فخفف حرارة القصبة، ونزل حالًا إلى علو 300 قدم فوق الأرض، وحينئذ وُجِدوا فوق الجهة الشرقية المعروفة باسم مريما، وهناك أشجار باسقة، ملتفة الأغصان والورق، ومعربسة العروق، وفي الجهة الغربية كان جبل أنغورو.

فمرت المنصورة بقرية عرفها العلَّامة؛ قرية قَوْلهْ، سندًا على الرسوم الجغرافية الواردة في الخارطة الكبيرة التي جلبها معه، وفيما هم فوقها سمعوا ضجيجًا وصراخًا عظيمًا من سكانها، ومنهم من رشق القبة بالسهام، فكانت تميس بأعينهم عابثة بسهامهم وبروعتهم ساخرة.

وما زالت الريح تدفع القبة نحو الجنوب، فرأى العلَّامة أنْ لا بأس بذلك؛ فإنه تابع الطريق التي سلكها القبطانان بوتون وأسبيك.

أما كنادي فحذا أخيرًا حذو يوسف، وأحب كثرة الكلام، فأخذا يتناقلان الأحاديث، ويقول الواحد للآخر كيفك يا صاح؛ أَلَسْتَ تكره العربات والسفن برؤيتك هذه المركبة الهوائية؟... فقال ديك: حتى والسكة الحديدية، فَبَخًّا عليها، وأفٍّ لها، لأن الراكب يسير، لكنه لا يشاهد ما يمر أمامه.

فقال يوسف: قل ما أحلى القبة الطيارة! فإننا نطير على أجنحة الهواء ولا نتعب، ولا يشق علينا المسير، والطبيعة منتشرة أمامنا فنعاينها بأبصارنا متأملين، ونُسَبِّحُ رب العالمين.

قال ديك: وما أجمل هذا المنظر، وما أحلاه!... وما أبهى هذه الطلعة

البهية!... لعمري أكاد أظن نفسي غريقًا في بحر أضغاث الأحلام.

فقال يوسف: إن عصافير بطني تصيح؛ أفلا تريدون أن نتناول طعامًا؟!

فقال سيده: نِعْمَ ما افتكرت به؛ فهاتِ لنا نأكل.

فأحضر يوسف الطعام حالًا، وهو خبز ولحم مقدَّد، وبعدما انتهوا من الطعام قام الخادم وصنع قهوة لذيذة المشرب، حسب معرفته الخاصة، وذاق جميعهم لذة أفراح سليمة تطيب لها الخواطر.

ثم أخذ كلٌ منهم ينظر إلى تلك البلاد ويتأمل بها، فكانت بغاية الخصب والريعان، ومزدانة بوساد الخضرة والأزهار، ثم مروا بحقول مزروعة تبغًا وذرة وشعيرًا، وهي بالغة ناضجة، وشاهدوا أيضًا قطعان غنم كثيرة العدد، محفوظة ضمن دائرة لتبقى آمنة من غوائيل الضباع، وكلما مروا بسكان قرية سمعوا ضجيجًا وأصوات حنق تتصاعد إلى المنصورة. أما العلَّامة فما زال مرتفعًا عنهم بمسافة لا تبلغ إليها السهام، وكثيرًا ما لحقها الناس وهم يقذفونها بالشتائم واللعنات، لكنهم لا يدرون ما يفعلون، وما أبلد فعلهم!

وعند الظهر تطلع ساموئيل برسومه الجغرافية، فرأى أنه فوق مدينة أوزارامو، وفي هذه الناحية أيضًا كان الزرع كثيرًا، والخضار فارشة تلك الأرض والطيور تصدح بالأنغام على الأشجار، فتمنى ديك لو أنه استطاع أن يصطاد منها شيئًا، ولكن ما الفائدة إذ لا يطيق إحضارها ولو ضربها بالرصاص.

وكانت القبة الطيارة تسير مسافة 12 ميلًا إفرنجيًا في الساعة، ولم تمض

مدة إلّا وصلوا إلى طول 20 38 فوق قرية طُندا.

فقال فرغوسن يا رفاق انظرا!... فإن برتون وأسبيك ابتليا بالحمى في هذا المحلِّ، وظنا أن أتعابهما السالفة ذهبت هدرًا ولا يستفيدان شيئًا من بعد، فإذا كان التعب والضنك أعياهما بوصولهما إلى هنا؛ فكيف إذًا بتقدمهما نحو ينابيع النيل، واضطرارهما إلى خوض البطاح والمفاوز التي لا حدَّ لها ولا قياس؟!

وكثيرًا ما مروا بأقوام متسلحين بالمكاحل؛ رأوهم يتبعون المنصورة بقصد رشقها بالسهام. فأراد ديك مرة أن يقترب إليهم ليشاهدهم عيانًا، فمانعه العلَّامة، وقال: ألا تعلم أنهم إذا ضربونا بسهمٍ وخرقوا القبة تبدد الغاز وسقطنا على الأرض متهورين؟!

فقال ديك: دعنا إذًا بعيدين عن هؤلاء المجانين، ولكن يا ترى ماذا يحسبوننا ونحن طائرون في هذا الفضاء الفسيح؛ فلا بد أنهم يعبدوننا؟!

قال ساموئيل: دعهم يعبدونا عن بعدٍ؛ فإننا بذلك نربح الأضعاف، ولكن ألا ترى الآن كيف تمر القرى والضياع؛ فعن قريبٍ نصل إلى جبال لا سكان فيها ولا خضار.

قال: في الحقيقة إني أرى بعض الآكام نحو تلك الجهة.

قال ساموئيل: وعن قريب نرى سلاسل جبال أوريزارا، وجبل دوتومي، وأُؤمِّل أن نقضي ليلتنا وراءه، ولكن ينبغي لنا الآن أن نزيد حرارة القصبة، لترتفع إلى علو خمسمائة أو ستمائة قدم، فنجوز ذُرَى الجبل بسهولةٍ.

ولما ارتفعوا إلى العلاء شاهد يوسف أشجارًا باسقة عظيمة، فقال: ويلاه؛ ما أعظمها وما أجسمها!... فإن عشرة منها تكفي لأن تؤلف غابًا أو حرشًا.

قال فرغوسن هذا شجر البوبات؛ فإن منها ما له جزع تبلغ دائرته نحو مائة قدم، وانظرا هذه الشجرة العظيمة؛ فعليها رُبِطَ الفرنسي مزان سنة 1845م، وأخذَ رئيس القوم، الذي أَلْقَى عليه القبض، في أن يقطع مفاصله شيئًا فشيئًا، وكانت الخدام إذ ذاك يرتلون ترتيل الحرب، ثم حسم حنجرته، وأخيرًا انتشل رأسه، وكان للفرنسي مزان من العمر نحو 26 سنة، فأفٍّ لهذه القساوة البربرية التي تستنكفها القلوب، ولا يطاق سمعها.

فقال كنادي: وكيف أن الأمة الفرنسية لم تنتقم لهذا الإثم الفظيع؟!

قال: إن الأمة الفرنسية طلبت القاتل، فعمل سعيد زنجبار ما عمل، وبذل أقصى جهده فلم يحظَ بالقاتل.

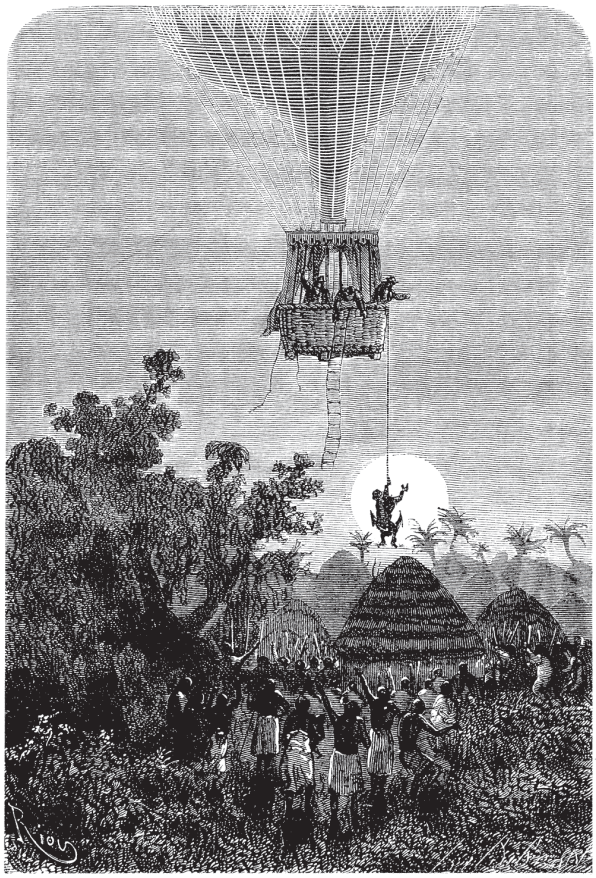
ولما كانت الساعة السادسة والنصف بعد الظهر، قابلت المنصورة جبل دوتومي، فاضطر العلَّامة إلى أن يرفع القبة إلى علو ثلاثة آلاف قدم، وهكذا مروا بالجبل ولم يمسهم ضر البتة.

وفي الساعة الثامنة بعد الظهر، نزلوا المنحدر المقابل للجبل، ورموا حينئذٍ المراسي فتعلّق إحداها بأغصان شجرة صبار عظيمة وبقيت متمسكة بها، ثم نزل يوسف الخادم بحبل المرسى ومكنه تمكينا، ولما أراد الرجوع إلى الزورق أُنزِل له السلم الحريري فعاد إلى مكانه بكل سهولة، ثم أخذوا

يهيئون العشاء، لأن الطبقات الجوية فتحت منهم القابلية، فسأل ديك العلَّامة وقال: كم جزنا من المسافة في هذه المدة؟

فأخذ العلَّامة يفحص عن ذلك في الرسم الجغرافي المسطر من صاحبه بترمان، وهو في غاية الضبط والدقة، فرأى أنه انتقل إلى درجتين عرضًا، وهما مسافة مائة وعشرين ميلًا.

وفيما هم يتناولون الطعام تفاوض بعضهم مع بعض على أن يقسموا الليل إلى ثلاثة أقسام، وكل واحد منهم يسهر في قسم، والاثنان يرقدان براحة، فسهر العلَّامة في القسم الأول، وكنادي في نصف الليل، ويوسف عند الفجر.



الفصل الحادي عشر

في حمَّى ديك ودوائها ونزوله إلى الأرض مع يوسف طلبًا للصيد

فمضى الليل كله بالهدوء والاستكانة، ولكن لما أصبح صباح السبت نهض ديك من الفراش وقد أحسَّ بتعب وخمول قوة ورجفة حمى، وكان قد تغير الفلك وتبقعت السماء بالسحب وتهددت الأرض بالغيث والعواصف، أما تلك النواحي المعروفة باسم زنغمرو فلا تزال فيها الأمطار متواصلة في جميع فصول السنة، إلَّا في شهر كانون الثاني؛ فإنها تنقطع مدة نحو خمسة عشر يومًا.

وما مضت برهة إلّا هطلت الأمطار وسالت السيول في تلك الوديان.

فقال يوسف: وما أدري ما هذه البلاد؛ فإني أرى ديك منحرف الصحة بعد مرور ليلة عليه؟!

فقال الصياد: في الحقيقة؛ إني أشعر بحمى شديدة.

فقال ساموئيل: لا بدع في ذلك يا صاح؛ لأن هواء هذه البلاد من أسوأ ما يكون في البلاد الإفريقية، وليس مرادنا البقاء فيها، بل هبوا بنا نَسِرْ إلى أعلى الطبقات الجوية.

وفي الحال نزل الخادم ورفع المرسى ثم عاد إلى محله، ووفَّر ساموئيل حرارة الغاز، فتصاعدت المنصورة إلى الأعالي، وهي مدفوعة بريح شديدة.

ولما اندفع إلى ما قدام أخذت البلاد في الاتسام بهيئة جديدة، ومن الأمور الكثيرة الحدثان في الأقطار الإفريقية أن بلادًا نظيفة وحسنة الأهواء تتاخم بلادًا سيئة المناخ والأهواء.

وما زالت الحمى تعذب الصياد عذابًا أليمًا، فالتحف باللحاف قائلًا: الآن ليس وقتَ الضعف؛ فما لي وله؟!

فقال فرغوسن: مهلًا يا ديك!... عليك أن تعتصم بحبل الصبر قليلًا، وعليَّ أن أبرئك بعد برهةٍ بقدرة المولى.

فتعجب ديك من هذا المقال، وقال: لعمري؛ إذا كنت طبيبًا وعندك الأدوية والعقاقير فأرجوك أن تداويني حالًا، لأن صبري قد عيل، وأحب أن أكون سالم الصحة في هذا الرحيل.

قال ساموئيل: سأداويك بدواء لا يكلفني شيئًا.

قال: وكيف ذلك؟!

قال: ولا أسهل من ذلك!... فإني عازم على أن أرتقي فوق هذه السحب، وأبتعد عن هذه النقطة الوبائية، فقط أرجوك أن تصبر عليَّ عشر دقائق

لأنشر الغاز.

وما مضت الدقائق العشر إلَّا ارتقت القبة فوق الطبقة الرطبة، واشتم ديك نسيم هواء رخيم ينعش الفؤاد، فترمم حاله ورأى نفسه مقبلًا على الصحة.

فقال يوسف: لعمري؛ إن هذه لَهِيَ الأدوية العجيبة.

قال العلَّامة: بل هو أمر طبيعي لا عجب فيه.

قال يوسف: جنابك أعلم بذلك.

قال العلَّامة: كما أن الأطباء توعز إلى المرضى أن يرتحلوا من محلات الأهواء السيئة إلى محلات الأهواء السليمة، ليشتموا رائحتها وينتعشوا بها، هكذا أنا أرفع ديك إلى طبقات الهواء السليم ليشفى من دائه.

فقال ديك: وما أجمل من هذه المركبة الهوائية؛ فإنها كفردوس أرضي!

قال يوسف: لا، بل تهدينا إليه.

أما المرأى الذي انبسط لأعين الطائرين فكان بهيًا جميلًا؛ إذ السحب تطوي بعضها على بعض، وتنعكس أشعة الشمس عليها فتجمل منظرها، ثم ارتفعت القبة إلى علو أربعة آلاف قدم، ولم يعودوا ينظرون الأرض، بل شاهدوا في الناحية الغربية ذرى جبال روبيهو، وهي على حدود بلاد أوغوغو في درجة 20 ْ36 طولًا. أما الريح فكان مهبها شديدًا، وتدفع المركبة إلى عشرين ميلًا في كل ساعة، أما هم فلم يشعروا بسرعة مسيرهم، بل كأنهم جالسون على هودج لا يحركه محرك.

وعقب مرور ثلاث ساعات تم إنذار العلَّامة فرغوسن، وبرئ ديك من سقمه، ثم فطر بقابلية ومسرة.

ثم قال: هو ذا ما اعتضت به عن سلفات الكينا، وعندي أنه أفخر منه.

قال يوسف: نِعم الهواء هواء هذه الطبقات، وإن شاء المولى سآتي إليها لأقضي فيها آخر أيام حياتي.

ولما كانت الساعة الثالثة من النهار، صحت السماء وتبددت السحب في الآفاق، فشرعت المنصورة تدنو من الأرض شيئًا فشيئًا، وأراد ساموئيل أن يجد ريحًا تقيده إلى شمالي شرقي إفريقية، فوجدها في علو 600 قدم فوق الأرض، وعقب مرور برهة بَانَ أمامهم جبل.

وفي تلك الساعة أخذت ذرى الصخور في الارتفاع، واقتضى الحال أن يتحذروا في كل دقيقة من رؤوس بعض الصخور التي كأنها تهددت المركبة.

فقال ديك: إن قبتنا فيما بين هذه الصخور كالسفينة التي تسير بين الصخور المتوارية في المياه.

قال العلَّامة: طمن بالك يا ديك؛ فإن هذه، رؤوسَ الصخور، لا تمسنا، فأخذت المنصورة تمر بين ذرى الصخور والجلاميد، ولا يمسها ضرر ولا عارض.

ثم قال فرغوسن: لو كنا سرنا مشاةً في هذه الأراضي المائية لخضنا في بحر حماة لا مناص منه ولا مفر، ولكانت تضررت دوابنا عياء وتعبًا

مذ خروجنا من زنجبار إلى هذه الناحية، ولَكُنَّا أصبحنا ضعفاء الجسم نحيفي البدن، وهيهات أن يجلدنا الصبر ويولج فؤادنا التجمل، وأَنَّى مني من إحصاء المصائب الكثيرة، والمشاق العديدة التي تحيق بالمسافرين؛ ففي النهار حرٌّ لافح مضنك يكاد المرء لا يطيق احتماله، وفي الليل برد قارس يلسع الجسم فلا يتمكن من مقاساته، ومع هذا كله لا تخلو من الذباب الذي قيل عنه إنه يخرق الأقمشة، وإذا لسعت البدن خبلت عقل الإنسان. هذا، مع قطع النظر عن الوحوش الكاسرة والأقوام البرابرة.

قال يوسف: أسأل لطف المولى أن لا يرميني في هذه المهوات.

قال ساموئيل: لعمرك؛ إني لم أبالغ في الوصف، بل إذا سمعت قصص السواح ورواياتهم في رحلاتهم الإفريقية، أغرتك على سكب بنات العيون من الجفون.

ولما كانت الساعة الواحدة قبل الظهر مروا ببحيرة إيمنجي، والأقوام إذ ذاك في تلك النواحي يتهددون المنصورة بالسلاح، فلم يظفروا بالنجاح، ثم وصلوا إلى الأرض المعوَجَّة الكاينة قبل جبل روبيهو، وهناك السلسلة الثالثة السامية من جبال أوزاغارا.

فأخذوا يتأملون جيدًا هيئة تلك الجبال، فكانت الأقسام الثلاثة مفروقة بعضها عن بعضٍ ببطاحٍ فسيحة، وبين الصخور والجلاميد ترى الحجارة والحصى مشتتة ومبعثرة؛ فالجهة المقابلة لزنجبار هي ذات منحدر وعر جدًا، وأما في الجهة الغربية فالمنحدر لا يشبهه بل هو ساحات منحنية قليلًا، ولا تخلو من الجداول التي تصب في نهر كنغاني في الجهة الشرقية، حيث أشجار الجميز وتمر الهندي والنخل والقرع متكاثرة بل على هيئة

رياض.

فقال فرغوسن: علينا الآن أن نأخذ حذرنا من هذا الجبل العالي، وهو جبل روبيهو الذي تأويله في عرف أولئك الأقوام «مرور الرياح»، فينبغي لنا أن نرتفع إلى العلاء، وعلى ظني؛ إذا ما وصلنا إلى علو 5 آلاف قدم فقط فلا ننجو من الخطر ولا نظفر بالوطر.

فقال يوسف: وهل كثيرًا ما يقتضي الحال أن نصعد إلى مثل هذا العلو الشاهق؟

قال فرغوسن: كلَّا، لأن جبال إفريقية ليست بسامية الارتفاع كسائر جبال أوربا وآسيا، أما نحن فمالنا ولها؛ إذ إننا نمر بها بقبتنا دون صعوبة، وعلى الأثر أسعر العلَّامة النار، فازدادت الحرارة ودفعت القبة هائلًا حتى أوصلتها إلى علو ستة آلاف قدم.

فسأل الخادم سيده قائلًا: أنجوز هذا الحد من العلو؟

أجاب ساموئيل: إذا كانت القبة كبيرة فيتمكن الإنسان من الصعود إلى درجة أسمى من هذه، كما فعله بريوسكي وغاي لوساك، ولكن أخذ الدم يمج من أنفيهما وآذانهما وعدما التنفس، ومنذ بضع سنين تجرأ رجلان إفرنسيان على الارتقاء إلى الأعالي فاحترقت قبتهما...

فسأل ديك حالًا وقال: هل سقطا على الأرض؟

قال ساموئيل: لا شك في ذلك، لكنهما سقطا سقوط العلماء الذين لا يمسهم ضرر البتة في سقوطهم.

فقال يوسف: سادتي!... إنكم أحرار إذا أردتم تجربة هذا الأمر، أما أنا فلست بعالمٍ بل جاهل، وأوثر أن أبقى في الحالة الوسطى، وقد قيل حب التناهي غلطٌ، وخير الأمور الوسط، ولا أود أن أبقى في علو باسق، ولا في وطوء دني؛ فإن الطمع ضرٌّ ما نفع.

ولما بلغوا علو ستة آلاف قدم، أخذ يخف ثقل الهواء، ولم يعد الصوت ينتقل إلَّا بصعوبة كلية، واختلطت الأشياء على بصرهم؛ فأمسوا لا يشاهدون إلَّا أجرامًا غير مخططة، ولا تبين الطرق إلَّا كشباكٍ، والبحيرات إلَّا كأحواضٍ.

وكان الهواء الجوي يدفعهم فوق الجبال المكسوة ذراها بالثلوج، كأنها باقية على حالتها الأولى من يوم خلقها المولى سبحانه وتعالى.

فرسم فرغوسن هيئتها وجميع ما يجاورها بتمام الضبط والدقة.

ثم نزلت المنصورة إلى منحدر جبل روبيهو، وكان هناك غاب وأحراش فيها من الأشجار أعظمها، والخضار أعجبها وأغربها، فدنا ساموئيل من الأرض وألقى المراسي فتعلّق إحداها بشجرة جميز، ثم نزل يوسف ومكنه باعتناء، وترك ساموئيل القصبة في حالة الحرارة، ثم قال للصياد: اذهب للصيد أنت ويوسف؛ فعليكما أن تأخذا سلاحكما وتصطادا ما يحلو لخاطركما لنغتذى الآن بين هذه الأحراش وننشرح برهةً.

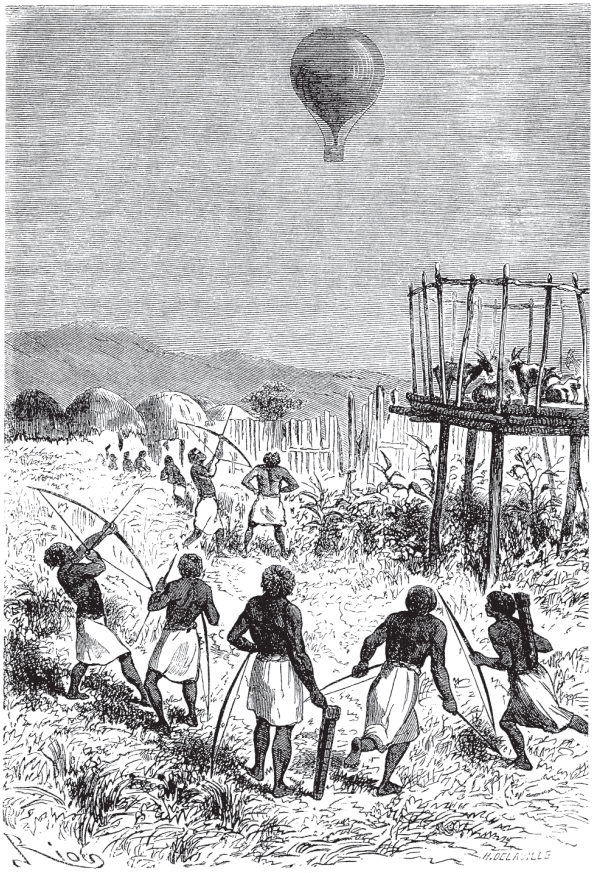
فنزل حالًا إلى الأرض، ولما خفت القبة ثقلًا تمكن فرغوسن من إطفاء نار القصبة.

فقال له يوسف من أسفل: حذار يا سيدي أن تطير وتتركنا!

فقال فرغوسن: كن على راحة بال؛ فإن القبة متمكنة جيدًا، فاذهبا بالسلام فإني أرجو لكما النجاح والتوفيق، ولكن كونا على حذرٍ دائمًا، وإذا ما دهمني داهٍ فإني أطلق الرصاص حالًا فيكون ذلك علامة لاقتضاء حضوركم السريع، وهكذا تم الاتفاق وانطلق الاثنان للصيد.

الفصل الثاني عشر

في هجوم السعادين على القبة الهوائية ووصول المسافرين إلى كازه



أما الأرض التي كانوا يسيرون فيها فكانت من فخار، وهي تتشقق من الرمضاء «شدة الحرّ»، وشاهدوا فيها بعض آثار القوافل، وشيئًا من عظام الحيوانات والناس معًا.

وبعد ما مشوا نحو نصف ساعة، ولج يوسف وديك غابًا ذات أشجار متنوعة، وهما يرصدان طيرًا أو حيوانًا آخر ليصطاداه، ولم يكونا يعرفان ما هي أجناس الحيوانات والطيور الموجودة في تلك النواحي.

فقال يوسف: إن لنا نفعًا في مسيرنا على أقدامنا، ولكن يا ليت هذه الأرض سهلة وحسنة الانتظام.

أما ديك فأومأ إليه بالسكوت والوقوف، لأنه نظر عن بعد بعض الحيوانات الشبيهة بالأيل، وأراد أن يكمن لها، لكنه لم يكد يدنو منها قليلًا إلّا أحست بالخطر المحيق بها؛ فكانت واردة مورد الماء لتستقي منه، فعند إحساسها

بدنو عدوها شرعت تلعق لعقة وتنظر إلى الهواء، أما ديك فتوارى عنها ودار حول صخر، ثم أورى زناد سلاحه فولت جميعهنَّ مدبرات، ولم يصب سهمه إلَّا واحدة منهن، فسرَّ سرورًا بليغًا لهذه الغنيمة الفاخرة، ولما اقترب إليها رأى لونها ضاربًا على الزرق واللون الرمادي، وبطنها مع ساقيها ذات لون أبيض أشبه ببياض الثلج.

فقال ديك لصاحبه: لله هذه الألوان؛ ما أجملها!... فإن مرادي حفظ جلدها.

قال يوسف: ولماذا يا ديك؟

قال ديك: أما ترى هذا البهاء والجمال؟!

قال يوسف: أما ترى أنت أن هذا حمل يثقل على صاحبنا فرغوسن؛ إذ إنه يفسد موازنة قبته؟!

قال ديك: هذا صحيح، ولكن يشق عليَّ ترك هذا الحيوان.

قال يوسف: كلّا لا نتركه كله، بل نستنتج منه أولًا ما يقيتنا وينفعنا، ثم نترك ما تبقى، وإذا شئت هيأت لك الآن لحمانه.

قال ديك: افعل ما تشاء وما تريد، وأنا أيضًا لا يصعب عليَّ تهيئة لحمانه، كما لا يصعب عليَّ صيده بالرصاص.

قال يوسف: لا ريب في ذلك، ولكن اتركني أتحمل الآن هذا التعب، فيما تهيِّئ لي وجاقًا على ثلاثة أحجار، وبعد ذلك تكلف خاطرك بجمع قليل من الحطب لنورث النار، ونشوي عليها اللحمان.

قال ديك: على الرأس والعين؛ فإن جميع ما أمرت به يتم برمشة عين.

وأخذ حالًا بإنشاء الوجاق، ولم تمض برهة إلَّا جمع الحطب وأشعل النار، فصعد لهيبها وطار شرارها، وكان يوسف قد انتشل من جوف الحيوان السلسلة وغيرها من اللحمان الطرية، وجعلها على النار لتُشْوَى.

وفيما هما على هذه الحال قال ديك لرفيقه: أتعرف ما خطر في ذهني؟

قال ديك: خال في ذهنك أن اللحمان ستنضج عن قريب، وهي شهية للطعام.

قال يوسف: كلَّا، بل طرق ذهني فكر وهو أنه ما عسى يحلُّ بنا لو ذهبنا ولم نشاهد القبة الطيارة؟

قال ديك: وما هذا الفكر الذي تفتكر به؟... أتظن فرغوسن يتركنا في هذه البلاد؟

قال يوسف: كلَّا؛ فليس الأمر كذلك، ولكن على فرض أن المرساة فلتت من الشجرة فترتفع القبة ويصعد معها مولاي.

قال ديك: ومن المحال أن يفلت الأنجر على هذا الحال، وهبه؛ جرى فإن العلَّامة سينزل في مكان آخر لينتظرنا، ولعمري؛ إن آلته من أفخر الآلات وأحكمها ترتيبًا وانتظامًا.

قال يوسف: ولو هبت ريح شديدة فإنها تدفعه إلى حيث لا يمكننا الوصول إليه.

قال ديك: أرجوك الصمت يا مبشرًا بالسوء؛ فإن حديثك هذا لا يبسط الخاطر.

قال يوسف: يا سيدي إن جميع ما يحدث في هذا العالم هو طبيعي، والحال كل أمرٍ قابل الحدوث، فإذًا ينبغي على المرء أن يأخذ حذره قبل فوات الفرصة.

ولم ينته يوسف من التفوه بهذه الكلمات إلَّا دوت طلقة بارودة في الآفاق.

قال ديك: مه ته يا يوسف؛ ما الذي ناب فرغوسن ليطلق الرصاص؟!

قال: ربما أحاق به خطر؛ هلم إليه راكضين.

فجمع الرفيقان ما كان جهزاه من المصيد، وعلقا على المسير نحو القبة الطيارة، وكانت الأشجار المتكاثفة في ذلك الغاب تمنعهما عن مراقبة القبة عن بعدٍ، ولم تمض برهة إلَّا أطلقت رصاصة أخرى.

فقال يوسف: العجب العجاب؛ الظاهر أن الخطر مبين فيجب علينا العجلة كيف ترى يا خليلي؟!

قال: هلمَّ فلنسرع، وأظن أنه يدافع عن نفسه.

ولما قطعوا الغاب شاهدوا القبة الهوائية مرتكزة في محلها، والعلَّامة ساموئيل جالسًا على مركبته.

فقال ديك: ربي ما هذا؟!... وما الذي خطر ببال فرغوسن؟!

فقال يوسف: أما ترى هنالك السودان المحيطين بالقبة؟

فتطلع ديك جيدًا، فشاهد عن بعد نحو ثلاثين شخصًا، يزاحم بعضهم بعضًا، وهم يعرون ويصيحون ويتسلقون على شجرة الجميز، ومنهم من كان قد ارتقى على الشجرة، وأخذ في التقدم نحو الأغصان العالية، فكان على القبة مبينًا.

فقال يوسف: أواه؛ ما هذا الخطب لسيدي؟!

فقال ديك: لا تخف، بل ارمع في مسيرك، وهرول راكضًا؛ فإنا بحوله تعالى سنبدد شمل هؤلاء الأعداء قبل وصولهم إلى فرغوسن؛ فهيا بنا هيا!

ثم أطلقت رصاصة أخرى فأصابت حبشيًا كان يتسلق على حبل المرساة، وفي الحال شاهدوا جسمًا ميتًا تساقط من غصن إلى غصن إلى أن بلغ علو عشرين قدمًا من الأرض، فتعلّق جسمه في العلاء، ونزلت ذراعاه وفخذاه، يتذبذبن في الفضاء.

فقال يوسف: يا ويلاه!... وبأي حبل يعتصم هذا القرد الكبير؟!

قال ديك: مالك وله؛ فقد قربنا من القبة؟!

قال يوسف، وهو يقهقه ضحكًا: أما ترى يا ديك أنه معتصم بحبل ذنبه؟ فإنه سعدان، وجميع هؤلاء السود هم سعادين.

وفيما هما يتناقلان هذه الأحاديث إذ وصلا إليهنَّ، فدخلا فيما بينهنَّ، ورياهنَّ شرذمة من السعادين البالغة في التوحش والبربرة، ولهنَّ أنياب هائلة كأنياب الكلاب، فأخذا يطلقان عليهنَّ الرصاص، فبددا شملهنَّ، وطرحا على الحضيض كثيرًا منهنَّ.

ثم دنا كنادي من القبة وارتقى إلى المركبة على السلم، وأما يوسف فتوارى بين أغصان الجميز ليحل المرساة، ثم اقتربت إليه المركبة فدخلها بسهولة، وفي الحال ارتفعت القبة إلى الأعالي واتجهت نحو الشرق بقوة هواء لطيف.

فقال يوسف: لقد نجونا من معركة شديدة.

فقال ديك: كنا قد ظننا أنك محتاط بقوم من السودان.

قال فرغوسن: ولا يختلفون عنهم كثيرًا اسمًا وفعلا؛ إذ إنهم سعادين.

قال ديك: لا يمكن تمييزهم عن بعد.

قال يوسف: حتى ولاعن قرب.

قال فرغوسن: وعلى جميع الأحوال فإنا نجونا الآن من خطب جسيم، لأنه لو فلتت المرساة من الشجرة بحراك السعادين، فلا أعلم إلى أين كانت أخذتني الرياح عنكم.

قال يوسف لديك: أما قلت لك ذلك من برهةٍ؟!

قال ديك: لقد أصبت في ظنك هذا، ولكن لا يخفى عليك أني كنت وقتئذٍ مهتمًا بتجهيز لحمان الصيدة، ومشتاقًا لمناولة ذلك الطعام الشهي الناضج.

قال فرغوسن: بالحقيقة، إن لحم هذا الحيوان الشبيه بالأيل لذيذ، وتشتهي النفس أكله.

قال يوسف: ذق منه إذا شئت يا سيدي؛ فإنه حاضر، واحكم لنا بصحة

الأمر.

قال الصياد: نعم؛ إن هذه اللحمان وحشية، لكنها أنيسة للحنجرة، ولا تمجها المعدة.

فقال يوسف وهو يأكل: لعمري؛ إني أرضى بأن يكون لحم هذا الحيوان قوتي اليومي، إلى آخر يوم من حياتي، ولكن ما ألذه إذا كرع معه بعض جرعات من العرق اللذيذ ليحسن هضمه في المعدة!

وفي الحال أحضر شيئًا من هذا الشراب، وناول رفاقه ثم تجرع حصته، وفي تلك الساعة سأل فرغوسن صاحبه ديك، وقال: قل يا صاح؛ ما رأيك الآن، هل ندمت على مرافقتنا؟

فأجابه ديك، وقال: لعمري؛ ما من أحدٍ كان يطيق أن يمنعني عن مرافقتكما ومساعدتكما.

وكانت تلك الساعة الرابعة بعد الظهر، فهبت ريح وأسرعت المركبة مسيرها، فكانوا يشاهدون الأرض كأنها ترتفع أمام أعينهم، فدلهم البارومتر على أنهم في علو 1500 قدم فوق مساواة مياه البحر فاضطر العلَّامة إلى أن يزيد حرارة القصبة لئلا تقرب القبة من الأرض، وعند الساعة السابعة حامت القبة فوق بحيرة كنيامه، وعلم فرغوسن من رسومه الجغرافية أنهم في أراضٍ تأسست فيها حديثًا بعض القرى المشتتة بين أشجار البوبات وغيرها، وهناك مقر أحد سلاطين أُغوغو، حيث خف التوحش على وجه من الوجوه، لأنه قلما باع فيها أحد عضوا من عيلته، أما الناس فيسكنون هناك مع البهائم، وليس لمنازلهم ترتيب

ولا انتظام، بل كأنها أكواخ حقيرة، تشبه كراديس عشب يابس.

وبعد أن جازوا بحيرة كنيامه مرُّوا بأرضٍ صخرية ومحجرة، إلى أن بلغوا أرضًا ذات خضارٍ وزرعٍ رطبٍ، ولكن كان الهواء مستكنًا، ورأيت القبة واقفة غير متحركة.

فانتهز العلَّامة هذه الفرصة الملائمة ليقيم الليل كله في الجو؛ إذ ليس ما يحرك قبته فيستريح ورفقاؤه في الطبقات العلوية باستكانة وطمأنينة، ولذا قد ارتفع عما كان عليه علو ألف قدم، فكانت السماء إذ ذاك رائقة، وفي كبدها تتلألأ النجوم والكواكب، فسبح الجميع مولاهم على عجيب خلائقه. ورقد الصياد مع يوسف لأن النوبة الأولى كانت على فرغوسن، ولما دخل نصف الليل أيقظ فرغوسن ديك وفوض إليه المحافظة، وأوصاه أن يكون حريصًا وأمينًا في وظيفته، وأوعز إليه أن إذا دهمه أدنى عارض فعليه أن يوقظه حالًا من فراشه، وقال له: إياك أن ترفع ألحاظك عن البارومتر، لأنه لنا بمنزلة البوصلة.

أما الهواء في تلك الليلة فكان باردًا، لأن ميزان الحرارة نزل 28 درجة عن حرارة النهار، وما زالت الحيوانات الخارجة من مرابضها هربًا من الجوع والعطش تضج وتصيح آناء الليل، والضفادع تنق في مراقدها، وابن آوى ينبح ويعوي.

ولما أصبح الصباح واستفاق الرفاق من الرقاد، نظر فرغوسن إلى البوصلة فعلم أن الهواء تبدل، وتغير اتجاه القبة الطيارة، لأنها منذ ساعتين من الصباح اختطت مسافة ثلاثين ميلًا في الجهة الشمالية الغربية، وتطلع برسومه الجغرافية فعلم أنه مارٌّ ببلاد مابنغورو المحجرة وقد شاهد

المسافرون فيها من حجر السيناء ذات الصقل الجميل، وصخورًا كثيرة محدبة ومتنوعة البناء والخطوط، وعظامًا مشتتة ومبعثرة من الفيلة والجواميس، ولم يشاهدوا فيها شجرًا، بل عن شمالهم قامت أحراش وغابات متسعة، ووراءها بعض القرى والضياع.

وعند الساعة السابعة تراءى لأعينهم صخر مستدير ذو مسافة ميلين، شبيه بترس سلحفاة عظيمة.

فقال العلَّامة فرغوسن: الحمد لله أننا في سبيل الهدى وطريقنا مستقيمة، وهاهي ذي بلاد جيهولمكوا؛ فلي رغبة في أن أحلَّ بها برهة لأجدد زاد الماء الضروري لآلتي، فلنجرب إذًا أن نتعلّق بمكان.

فقال ديك: قلما يوجد أشجار في هذا المقر.

قال: علينا أن نجرب، علنا نتعلق بخلل صخر، وأوعز إلى يوسف أن يلقي المراسي، فألقاها ولما كانت القبة قد فقدت شيئًا من قوتها الرافعة دنت من الأرض، وإذا بمرساة تمسكت بثقب صخرٍ، فوقفت المنصورة ثابتة غير متحركة.

فلا يظن القاري أنه صاغ للعلامة إخماد الحرارة في حالة وقوفه، لأن مؤونة القبة حسبت على مساواة سطح البحر، والحال أن تلك البلاد هي في ارتفاع، وقد بلغوا فيها علو 600 إلى 700 قدم عن سطح البحر، فعلى هذا المنوال كانت القبة تميل إلى النزول، وقد التزم العلَّامة أن يترك الغاز مشتعلًا قليلًا، ليحافظ على لبوثه في ذلك العلو من الأرض.

وقد نظر العلَّامة فرغوسن إلى الرسوم الجغرافية فعرف أنه في الجهة

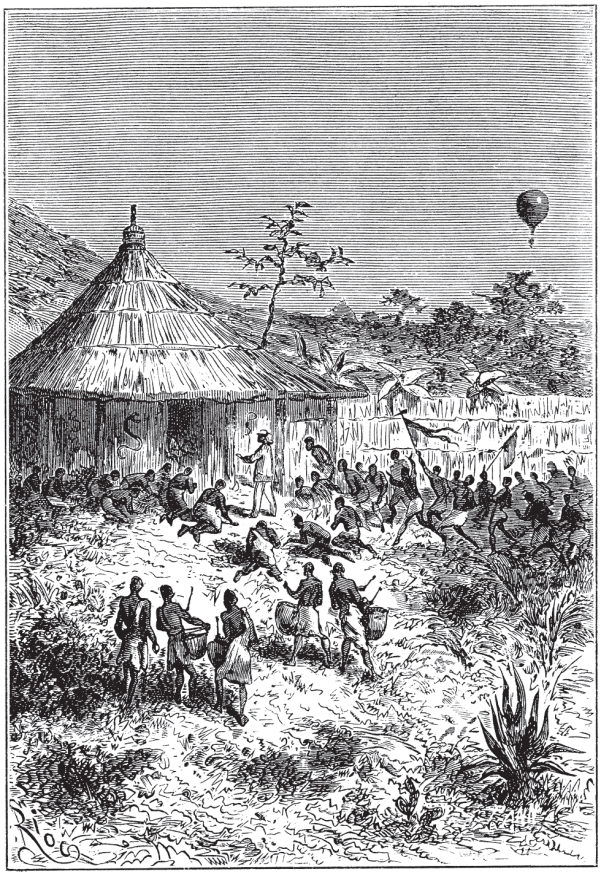
الغربية من سفح بلد جيهولكوا، حيث يوجد بعض غدران ماء، فذهب إليها الخادم وحده حاملًا برميلًا صغيرًا، وقد شاهد المحل الذي دله عليه فرغوسن فأملأ البرميل وأتى به المركبة بعد مرور نحو ثلاثة أرباع الساعة، ولم يشاهد في طريقه شيئًا غريبًا خصوصيًا، إلَّا حفرًا واسعة لإيقاع الفيلة، وقد كاد يهوي في إحداهنّ.

وقد أحضر معه جنسًا من البرسيم، وهو خضرة كانت تأكله السعادين بتلهف، فعرف العلَّامة أن هذه الخضرة تعرف بإفريقية باسم امبنبو، وهي كثيرة الوجود في نواحي جيهولكوا الغربية، وقد انتظر فرغوسن خادمه بقلق، لأنه كان يخشى من طارئ يطرأ عليهم في تلك البلدان التي لا يراعى فيها ذمام الغريب، وليس له أمان على نفسه.

ثم وضعوا البرميل في المركبة بكل هينة، لأنها كانت قريبة إلى الأرض كثيرًا، وبعد أن رفع يوسف المرساة طلع إلى المركبة، وجلس أمام سيده فأضرم القصبة، وامتد الغاز وارتفعت المنصورة سائرة في طريق الرياح، وكانت المركبة إذ ذاك بعيدة عن مدينة كازه ذات الأهمية العظيمة في أواسط إفريقية نحو مائة ميل، وقد رجا المسافرون أن يصلوا إليها في النهار ذاته، نظرًا لوجود الرياح الجنوبية الشرقية وكانت المركبة تسير مسافة 14 ميلًا في الساعة، ولكن صعب على فرغوسن في تلك الدقيقة إدارة مركبته، لأنه لم يكن يمكنه أن يرتفع إلى علوٍّ باسق بدون أن يمد الغاز كثيرًا، لأن تلك البلاد كانت شامخة الارتفاع، وعلوها الأوسط 3000 قدم، فبذل ساموئيل غاية مجهوده، لِئَلَّا يمد الغاز كثيرًا، وقد مرَّ بجبال وآكام كثيرة، ثم بقريتي طمبو وتوراولس، وهذه القرية كانت ببلاد أونياوازي، فيها الأشجار الباسقة ومنها شجر شبيه بالصبير يرتفع إلى علو شامخ.

ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت السماء صافية حامت المنصورة فوق مدينة كازه، الكائنة في مسافة بعيدة عن ساحل البحر بثلاثمائة وخمسين ميلًا.

فتطلع فرغوسن وقتئذٍ في مفكراته، وقال: رحلنا من زنجبار الساعة التاسعة صباحًا، وبعد أن سرنا يومين طفنا مسافة 500 ميل جغرافي، أما القبطانان برتون وأسبيك فلبثا مقيمين أربعة أشهر ونصفًا يسيران في الطريق نفسها التي مررنا بها.



الفصل الثالث عشر

في مدينة كازه وسوقها وأولاد القمر وهيئة رقصهم وعبادة قوم تلك البلد
ليوسف وظهور قمرين في البقعة السماوية

أما كازه فليست، بحصر الكلام، مدينة «لأن ليس مدينة في أواسط إفريقية»، بل هي مركز ذو أهمية جزيلة في إفريقية الوسطى، لكنها ليست إلَّا مجموع ست أودية وفيها عدة أكواخ لمأوى أصحابها، وشاهدوا بعضًا منها محتاطًا ببساتين مزروعة بصلًا وبطاطة وباذنجان وجبئًا «شبه الكمأة» وغير ذلك مما يروق للخاطر. أما أونياوازي فهي بلاد القمر، ولا تخلو من الخصب وجمال المنظر، وفي وسطها مقاطعة أوينه نمبه، وهي بلد جميلة أيضًا، وهناك يقيم بعض آل عمان من عرب العربان الذين يتاجرون بالفراء والعاج والعبيد مع بلاد العرب، والقوافل تأتيهم ببضاعة الفخفخة وغير ذلك مما هو غالي الثمن، لأنهم عائشون مع نسائهم وعبيدهم بصفاء البال وطيبة العيش، ولا ينغص عيشهم حادث من طوارق الزمان فيتمددون ويمرحون ويدخنون آناء الليل وأطراف النهار، ولقد يشاهد أكواخ كثيرة حول تلك الأودية، وأسواق واسعة لفرش

البضائع، يحيط بها أشجار كثيرة، وهناك محل اجتماع القوافل؛ فإن منها ما يأتي من الجنوب مصحوبًا بالعبيد والعاج، ومنها ما يأتي من الجهة الغربية مصحوبًا بالأقطان والأدوات الزجاجية لأقوام البحيرات العظيمة.

ولهذا ترى في تلك الأسواق اضطرابًا مستديمًا وضجيجًا وبعاقًا ولغطًا غريبًا؛ فإنك لا تقف برهة إلَّا وتسمع صراخ المكارين، وطنطنة الطبول والزمور، ودقدقة الدواب ونهيق الحمير، وغناء النساء وزقزقة الغلمان، ومدقة الجمدار رئيس القافلة.

وشاهدوا تلك البضائع المفروشة من العاج وأسنان الفيلة المتنوعة والعسل والقطن، وغير ذلك من الأشكال المتجنسة.

ففي الساعة والحال عند ظهور القبة الهوائية فوق كازه بطلت الضجة، وزال الصراخ، وفر كل من ذلك القوم الرجال والنساء والعبيد والتجار والعربان والزنج، مهرولًا إلى كوخه ليختبئ فيه، ولم يعد أحد ظاهرًا للوجود.

فقال ديك لفرغوسن: إذا أتت قبتنا دائمًا بهذا المفعول فيصعب علينا جدًا تمكين العلاقات التجارية مع مثل ذلك القوم.

قال يوسف: ولكن إما تفطن أن لنا الآن معاملة تجارية سهلة جدًا، وهي أن ننزل بهدوء وطمأنينة إلى الأسواق، ونحمل ما خفَّ حملًا وغلا قيمة، من دون أن نعامل التجار، وبهذا نصبح من الأغنياء الموسرين.

قال فرغوسن: سقيًا لك؛ إننا ألقينا الرعبة في أول وهلة على هؤلاء الأقوام،

ولكن لا نلبث أن نرى الجميع راجعين، سواء أكان باعتقاد باطل أم برغبة معرفة ما شاهدوه.

قال يوسف: هذا رأيك يا مولاي؟!

قال: لاشك في ذلك، وعن قريب تراهم مقبلين، ولكن حذار من أن نقرب إليهم لأن قبتنا ليست قبة مصفحة ولا مدرعة، بل إذا أطلق علينا ضربة رصاص أو إذا نبلنا بنبلٍ وخرق قبتنا هلكنا لا محالة.

قال ديك: ألَا تعزم على أن تخابر هؤلاء الإفريقيين؟

قال فرغوسن: بلى؛ إذا سنحت لنا التقادير، لأن مدينة كازه لا تخلو من التجار والعربان المثقفين والمتمدنين نوعًا، وأتذكر جيدًا ما حكي عن برتون وأسبيك أنهما نالا ضيافة حسنة من سكان المدينة، فترى إذًا أنه لا يوجد مانع للدخول بينهم والمحادثة معهم.

ولما اقتربت المنصورة من الأرض تعلّقت إحدى مراسيها برأس شجرة عالية قرب محلة السوق.

وفي تلك الساعة ظهر القوم وخرج كل من خبائه، لكنهم لم يخرجوا إلَّا قليلًا فقليلًا بحرص واحتراز.

ثم هرول بعض السحرة المعروفين عندهم باسم «وغنغا» وهم حاملون القرع المدهون بالشحم والأصداف وغيرها من الأشياء المشهورة بقلة نظافتها.

ولم تمض برهة إلَّا وازدحم القوم، وأحاطت بهم النساء والغلمان وضجت

الطبول بضوضائها، ثم رفعت الأيدي نحو السماء.

فقال فرغوسن: هذه عادتهم في الدعاء والتضرع، وعلى ما أرى فإنه عن قريب يصير لنا أهمية جزيلة عند هؤلاء الإفريقيين، وأنت يا يوسف لربما ستمسي عندهم إلهًا.

قال يوسف: لا أزهد في مثل ذلك الأمر، ولا أكره رائح البخور.

وفي تلك الدقيقة قام أحد السحرة المعروف باسم ميانغا وأومأ إلى الناس بالسكوت فسكتوا جميعهم، ثم تقدم نحو المسافرين في المركبة وخاطبهم بلغة مجهولة لديهم، فلما لم يفهم فرغوسن كلامه تفوه على الفور ببعض الألفاظ العربيّة فأجيب على كلامه بهذه اللّغة أيضًا.

ثم خطب أمامه الساحر خطابًا طويلًا أنيقًا، فلخص فرغوسن من مقاله أن هؤلاء القوم اتخذوا المنصورة نفس القمر، وأن هذه الإلهة المحبوبة تنازلت أن تدنو منهم مع أولادها الثلاثة، وأن هذا لشرف عميم شمل لفيف سكان تلك المدينة فأصبحوا لها من الممنونين، ومعروفها هذا لا ينسى من تلك الأرض المحبوبة من الشمس.

فأجاب فرغوسن بأمارات العظمة والكبر، وقال: فليكن معلومًا عندكم أن القمر يطوف حول بلاده مرة كل ألف سنة؛ إذ إنه يرغب في الظهور لأعين عابديه، ويريد منهم أن يعرضوا لحضرته الإلهية ما لهم من الحاجات والضرورات، ولا يرتبكوا ويربكوا في توسلاتهم، بل يجب أن تكون غير مشوبة بالجزع والخديعة.

فقال الساحر: إن سلطاننا، «ويعرف باسم موانى»، قد أنس فراش

المرض منذ سنين عديدة فبالنيابة عنه أتوسل إلى جلالة القمر ليرفق بحاله ويدعو أولاده يشرفونه بحضورهم إذا شاءوا.

فبلغ فرغوسن رفقاءه تلك الدعوة، فقال الصياد: وهل مرادك أن تتوجه إلى عند هذا الملك الحبشي؟

قال: وما المانع؟ فإني أرى هؤلاء القوم حسني الالتفات نحونا، ولا يأتوننا بضرر، وها إن الجو رائق فلا نخاف على مركبتنا.

قال: ولكن ماذا تصنع هناك؟

قال فرغوسن: لا تخف؛ فإني أقضي شغلي بشيء من الأدواء الطبية الموجودة معي.

ثم التفت نحو الجمع، وقال لهم: اليوم حنَّ قلب القمر على سلطان بني أونياوازي، وشاء بخاطره أن يسلمنا دواء شافيًا لدائه، فليكن إذًا متأهبًا لملاقاتنا لأننا ذاهبون إليه.

فضجت حينئذٍ أصوات هؤلاء الرهط بالغناء والبعاق، وأخذوا في المسير إلى البيت الملوكي.

ثم قال ساموئيل لرفاقه: يجب أن نكون على حذر وأهبة للرحيل إذا اضطررنا لترك هذه المدينة حالًا؛ فليبق ديك في المركبة محافظًا على ما يكفي من القوة الرافعة بواسطة القصبة، أما المرساة فهي ممكنة غاية التمكين، ولا نخشى عليها، وأنا نازل إلى الأرض، ويرافقني يوسف إلى عند طرف السلم وهناك يستريح على خاطره.

قال الصياد: وهل تذهب وحدك لعند ذلك الحبشي؟

قال فرغوسن: لا اقتضاء لذلك؛ فإن هؤلاء القوم ظنوا أن إلههم القمر آتٍ لزيارتهم فباعتقادهم هذا الباطل لا يمكنهم مضرتنا فأريحوا بالكم وليبق كل منكم محافظًا على وظيفته.

فقال الصياد: سمعًا وطاعة يا أيها المولى.

أما صراخ القوم فأخذ في الازدياد وكانوا يطلبون ابن القمر ليقضي وطرهم.

قال يوسف: وما هذا الأمر؟!... الظاهر أنهم متجبرون نحو إلههم وأبنائه.

ثم نزل فرغوسن من مركبته وأخذ معه بعض الأدواء المقوية، وسار يوسف أمامه ولوائح العظمة والوقار لائحة على محياه، ثم جلس عند طرف السلم وقعد على ركبته حسب الزي الشرقي، فاحتاط به القوم من الإفريقيين باحتشام لائق.

أما العلَّامة فرغوسن فسار وراء الآلات الموسيقية الشادية بأنغامها الشجية «ولله درُّها»، وأحاقت به السحرة وغيرهم من المعتبرين، وما مشوا قليلًا إلَّا وفد ابن السلطان الذي كان وحيد الإرث الشرعي دون إخوته الشرعيين، فأتى وسجد لابن القمر، أما فرغوسن فأنهضه حالًا بحركة لطيفة ثم مشى معهم في تلك الطرقات المظللة بأنواع الأشجار والنباتات، وما مضى نحو ثلاثة أرباع الساعة حتى وصلوا إلى سراية السلطان الكائنة في سفح أكمةٍ، وهي نوع من البناء المربع المدعو في لغة أهل تلك البلاد باسم «ايتيتينيا» وحول جدرانها قطع فخارية؛ منها على

هيئة رسم إنسان، ومنها ما كان أحسن انتظامًا، وهو على هيئة الحيات، وأما سقف المنزل فمفصول عن الجدران بعمد، والهواء يتلاعب في المخدع من ذلك الفلق لأن الشبابيك غير موجودة فيها والباب يكاد يستحق اسم باب لصغره وهيئته الغريبة ولما بلغ فرغوسن إلى ذلك المحل لاقته الخفراء ورجال الدولة بمزيد الإجلال وكانوا جميعهم أناسًا يمثلون حسنًا هيئة أقوام إفريقية الوسطى، ذوي بنية حسنة وقوة مشهورة ومزاج سليم وشعورهم مجدولة على هيئة الضفائر، منسدلة على أكتافهم، وخدودهم مخططة بالحمرة والسواد والزرق من المصادغ حتى الفم، وعلى آذانهم المدودة قطع خشب مستديرة وألواح غراء سندروسي، ولباسهم مبرقش وملون، وكانت الجند واقفة وهي حاملة القسي والأسنة والفؤوس والسيوف المتجنسة الهيئات.

فدخل العلَّامة ذلك البلاط الملوكي، وما زال الصراخ والضجيج قائمًا عند دخوله رغمًا عن تدثر السلطان بلحاف السقم، وشاهد عند أسكفة الباب أذناب أرانب ونواصي أعيار «جمع عير وهو الحمار الوحشي»، معلّقة نظير طلاسم سحرية، فلاقاه جمٌّ غفير من نساء السلطان وهنَّ يضربن بالطبول ويزمرن بالمزمار، وكثير منهن بديعات في الجمال، وكُنَّ يشربن الدخان بالغلايين الكبيرة السود، وهنَّ ضاحكات لا يكترثن بشيء، وقد لبقت بهنَّ أثوابهنَّ المرقعة بقطع من الجوخ والألياف المنسدلة على حقويهنَّ برخاء.

لكنه لحظ منهنَّ ستة لم يكنَّ فارحات؛ أقل من سائر رفيقاتهنَّ، وإن كنَّ معدات لأن يجعلن في القبر حيات مع السلطان عند مماته.

وبعد أن رمق فرغوسن بلحظة عين جميع ما تراءى لديه، تقدم نحو تخت السلطان المصنوع من خشب، وشاهد رجلًا بالغًا سن الأربعين، وقد طرحته في الفراش ودوخته المسكرات المختلفة، ولا يمكن إبراء دائه بدواء، وعلى الخصوص لأن المرض قد نابه منذ سنين جمة، وكان هذا السكير البايس قد أضاع حواسه وزال إدراكه، ولو جمع له جميع نشادر العالم ما كان كافيًا لأن يعيده إلى نفسه.

وفي مدة زيارة ابن القمر لجلالة السلطان خرت النساء ساجدات له، وانحنت ظهورهنَّ، فأخرج العلَّامة شيئًا من الدواء المقوي الذي كان معه، وسقى منه السلطان فتحرك جسمه قليلًا، ولما كان قد مضى عليه بعض الساعات ولم يبد أدنى حركة تدل على بقائه في قيد الحياة، سرَّ القوم بالحركة التي بدت منه في تلك الدقيقة وضجوا بالصراخ علامة الشكر والممنونية وإجلالًا للطبيب السماوي.

وعلى الإثر ارتد فرغوسن عن المريض، وأوسع فسحة بين هؤلاء القوم المزدحمين حوله، وسار قاصدًا منصورته، لأن الساعة كانت وقتئذٍ السادسة بعد الظهر.

أما يوسف فكان منتظرًا سيده بكل طمأنينة وراحة بال عند سفح السلم، وحوله قوم من تلك المدينة يقدمون له واجبات الإكرام اللائق بابن القمر.

وكانت هيئته بشوشة مع عابديه المحدقين به وهو يخاطبهم بأحاديث لطيفة؛ من جملتها ما كان يراجعه لهم بلغته الإنكليزية قوله هذا: اعبدوني اعبدوني يا أيها الرجال ويا أيتها السيدات لأني شيطان لطيف رقيق الجانب وإن كنت ابنًا للقمر.

وقد قدم له هؤلاء القوم الهدايا استعطافًا بسمو ذاته الإلهية واستغفارًا عن ذنوبهم، وكانت تلك الهدايا بعض سنابل من الشعير وشرابًا معمولًا من الشعير أيضًا، فاضطرَّ يوسف إلى أن يذوق شيئًا قليلًا من هذا الشراب، ولما كان مما تمجه الحنجرة تأثر منه وكشر عن أسنانه لشدة مرارته، فحسب القوم تلك الكشرة تبسمًا لطيفًا رائقًا.

وكانت الشابات يترنمن بأصواتهنَّ الرخيمة في ذلك المحفل الديني، ومنهن من كنَّ يرقصن أفخر رقصةٍ عندهنَّ.

فقال يوسف: ما لي أراكنَّ ترقصن وأنا لا أرقص؛ فانظرن إذًا لتتعلمن كيف الرقصة في بلادنا.

وأخذ من ثَمّ يرقص رقصة مضحكة، وهو يدور ويحوم ويهزُّ برجليه ويديه وركبتيه ويتلوى وينعطف ويقف برهة ويكشر عن أسنانه، وهكذا أبان للقوم الإفريقيين كيف ترقص أبناء القمر.

فما فرغ يوسف من حركاته وأطواره الغريبة إلَّا نهض كثير منهم، رجالًا ونساء، ولما كانوا منطويين على التقليد بنوع غريب، كما يقلد السعادين أطوار الإنسان، شرعوا في تقليد أطوار يوسف من الدورات والحركات والتكشير عن الأسنان ورأيت من ثَمّ هؤلاء الهمج قد هاجوا وماجوا وعربدوا وأزبدوا، وفيما هم على تلك الحال إذ أقبل فرغوسن متجهًا نحو منصورته، وكان الإفريقيون حوله يزاحمونه صارخين وسحرتهم ورؤساؤهم مضطربون، أما هو فيسرع في مسيره وقد تعجب يوسف غاية العجب، وظنَّ بنفسه عسى أن السلطان هلك من مداواة طبيبه السماوي، وأنهم يتهددونه ليُلحِقوه به.

وشاهد أيضًا كنادي اضطراب القوم وشغبهم، ولم يفهم السبب، ثم اقترب العلَّامة إلى سفح السلم، وكان القوم ضاربين عن المضرَّة بشخصه لاعتقادٍ باطل ما زال يخالج ضميرهم، وكان ذلك حظًا لفرغوسن؛ إذ إنه تمكن من البلوغ إلى السلم وبه إلى المركبة، واتبعه خادمه في الحال.

فقال فرغوسن ليوسف: هلمَّ وأسرع؛ فإن الوقت قد ضاق بنا، ولا تكترث بحل المرساة، لأن مرادي أن أقطع الحبل وأترك المرساة.

فقال يوسف وهو يتسلق المركبة: وما الذي جرى؟... وما عسى ناب هؤلاء القوم؟!

ثم قال ديك، وهو حامل سلاحه، متأهبًا لإطلاق الرصاص إذا لزم الأمر: قل يا صاح، وما بال هؤلاء البرابرة؟!

فقال فرغوسن لرفيقيه: انظرا إلى الأفق.

فقالا: وما الذي هناك؟

قال فرغوسن: هناك القمر، فأشار إلى القمر الوردي المتلألئ الظاهر في كبد السماء الأزوردية؛ فلاشك أن ذاك هو القمر المألوف.

فاحتار القوم وقالوا في أنفسهم: إما أنه يوجد قمران في الديباجة الزرقاء، وإما أن الرفاق الثلاثة ما هم إلَّا خداعون ومكارون، وليسوا بأبناء القمر كما توهمنا.

ولهذا لما رأوا أن العلَّامة قد تملص من أيديهم وكاد يطير في الطبقات الجوية، رفعوا الأسنة والحراب وتأهبوا ليطلقوها على القبة، فقام أحد

السحرة وأومأ إليهم أن لا يبدو حركة فأنزل جميعهم السلاح، ثم تسلق الشجرة وعزم على أن يمسك حبل المرساة ويجر المركبة إلى الأرض، فمسك يوسف في الحال سكينًا، وسأل مولاه، وقال: هل أقطع الحبل؟

فقال فرغوسن: انتظر قليلًا لأني آمل حفظ المرساة، ومتى اضطررنا إلى قطع الحبل فلا يمنعنا مانع، حتى ولا هذا العبد الخادع.

وفي تلك الدقيقة كان هذا الساحر يبعد الأغصان التي هي حول المرساة فتخلصت هذه حالًا، ولما كانت القبة ذات قوة رافعة جذبت المرساة وجرتها إليها، وجرت معها العبد الأسود الراكب على المرساة كأنه على حصان ذي أجنحة، وطار المسكين مع المسافرين إلى الطبقات الجوية.

فاندهش القوم اندهاشًا لا مزيد عليه عند معاينتهم أحد سحرتهم طائرًا في الأهوية.

وكانت القبة بقوتها الصاعدة قد ارتفعت إلى علوٍ شاهق، فقال ديك: لا بأس من رحلته برهة في هذه البلاد، لأنها توليه انشراحًا بتغيير الهواء.

فسأل الخادم سيده، وقال: هل نرخي هذا الأسود على الفور؟

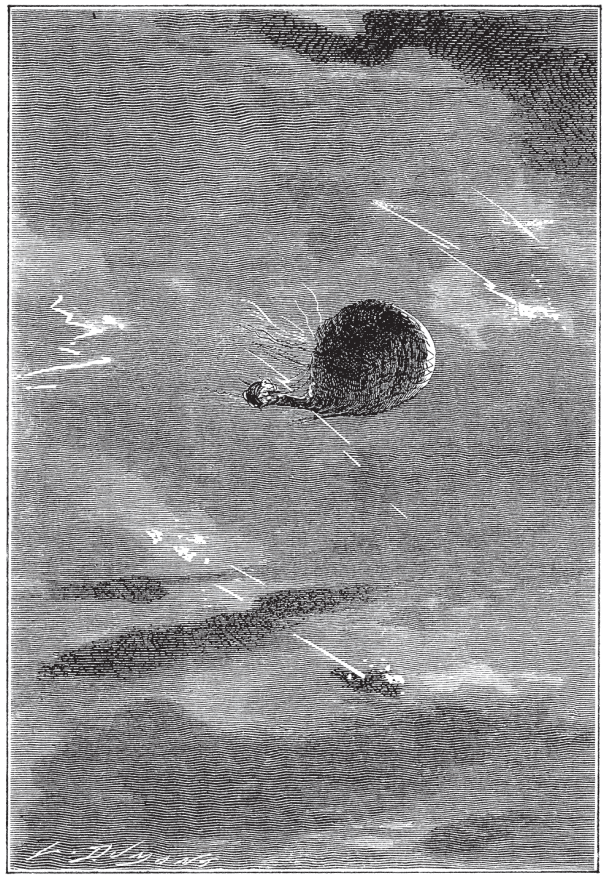
قال فرغوسن: حاشا؛ ليس هذا من دأبنا، ولكنا نقترب من الأرض بعد برهة، ونضعه بكل هدوء وراحة، وأرى أنه بعد هذه الحادثة الغريبة سيعظم شأنه لدى قومه، وتزيد قوته السحرية عندهم.

فقال يوسف: قد بلغت علو ألف قدم، والعبد الأسود مستمسك بحبل المرساة استمساكًا شديدًا، وعيناه شاخصتان بالمركبة وهو ساكت ولهان.

ولما ابتعدت القبة عن المدينة خفف العلَّامة حرارة القصبة، ودنا من الأرض، فلما رأى الساحر نفسه قريبًا انتهز الفرصة فرمى بنفسه من علو عشرين قدمًا، وولَّى الأدبار قاصدًا مدينة كازه، فخف حينئذ ثقله عن المركبة وارتفعت حالًا إلى الجو.

الفصل الرابع عشر

في العاصفة الشديدة والنجاة منها وفي أرض بلاد القمر الأريضة ومستقبلها



فقال يوسف: هوذا؛ قد تبنينا للقمر بلا استئذانه فنابنا ما نابنا، وكدنا نقع بين أيدي البرابرة ونذهب فريسة لتوحشهم، ولكن لم تقل لنا يا مولاي؛ هل لم تحسن تطبيبك لجلالة السلطان فخف مقام القمر عندهم؟

وسأل أيضًا ديك العلَّامة وقال: هات!... أخبرنا عن ذلك السلطان الجليل الشأن!

قال فرغوسن: إن السلطان رجل نشوان، سيوصله سكره إلى دركات المنية بعد برهة وجيزة، ولا يتأسف أحد على فقده، أما ما ينتج مما جرى إنما هو أن كل مجد زمني زائل لا يلزم الإنسان أن يلتصق به أسفًا عليه.

فقال يوسف: كان ذا أمر يوافقني؛ فإني قد نلت إجلالًا وتبجيلًا فائقي الحد، وأصبحت إلهًا على خاطري فحسدني القمر على ذلك، وظهر حالًا في الأفق ملونًا بالأحمر، وهذا مما يدل على أنه قد ساءه صنيعنا.

وفيما هم يتناقلون هذه الأحاديث إذ شاهدوا عن بعدٍ سحبًا وضبابًا كثيفًا، يتراكم ويزاحم بعضه بعضًا، وهو مقبل من الشمال، ثم عصفت ريح فدفعت القبة إلى ما بين الشمال والشرق، أما الديباجة الزرقاء التي فوق المركبة فكانت رائقة لا سحاب فيها ولا ضباب، إلَّا أن الجو كان ثقيلًا جدًا.[؟]ونحو الساعة الثامنة ليلًا، وصل المسافرون إلى درجة 40 32 طولًا و 17 4 عرضًا ولما كانت الريح متأهبة للعاصفة كانت تدفعهم مسافة 30 إلى 35 ميلًا في الساعة فمروا فوق صحاري أمفوتو الأريضة ذات الحضار والنضار، وكان منظرها مدهشًا يعجب الأبصار.

قال فرغوسن: هوذا؛ نحن في أواسط بلاد القمر، وقد دعيت هذه البلاد باسم بلاد القمر من الأزمنة القديمة لقدمية عهد عبادة القمر فيها. لعمري؛ إنها لأرض رائعة الجمال.

قال ديك: قلما يشاهد في العالم أرض ذات نضارة وخصب شبيهة بها.

قال يوسف: لو كان ذلك حول لَنْدَرَةَ ما كان طبيعيًا، غير أن القلوب لهامت به وراقت لمشاهدته الأبصار، ولكن يا للعجب؛ لماذا هذا الريعان قد جعل في بلاد يسكنها الأقوام البرابرة، والوحوش الكاسرة؟!

قال فرغوسن: ومن يعلم هلَّا يأتي يوم وتصبح هذه البلاد مركزًا للتمدن؟... لأنه عندما تكل الأراضي الإفرنجية عن أن تنبت لسكانها زرعًا وتفرغ منها وسائط المعيشة، لربما يهجرونها ويقصدون هذه المحلات ويجعلونها سكنًا لهم.

قال ديك: وهل تصدق في قولك هذا.

قال فرغوسن: بلا شك أيها الخلّ العزيز؛ ألا ترى جريان الحوادث في العالم منذ ابتدائه إلى الآن، فإنك إذا اتبعت على ممر الأجيال مسير الشعوب ومعيشتهم ورحيلهم من بلاد إلى بلاد توصلت إلى نتيجتي نفسها؛ تأمل أولًا في المشرق التي كانت مهد الجنس البشري؛ فإنها قد لبثت مدة أربعة آلاف سنة تنمي زرعًا وتنبت نباتًا كافيًا لأعواز سكانها جميعًا، ولما شاخت وفسدت أكثر أراضيها أخذت الأقوام في الانتزاح عنها، واندفقت متهافتةً إلى بلاد المغرب التي كانت تزهو وقتئذٍ بجمال الصبوة، وما زالت هذه في دورها تكفي سكانها مدة ألفي سنة حتى أخذ خصبها في الخمول، وبدأت تنقص قوتها النامية يومًا فيومًا، وصارت الأمراض تبلي محصولاتها وزرعها في كل سنة، وكأنك بها إنسان قد ذهبت أيام صبوته فشاخ وهرم ووهنت قواه الحيوية، وفسد منه الدم في العروق، ولذاكم السبب جعلت الآن الأقوام الإفرنجية تهجر بلادها، وتتهافت مندفقة إلى البلاد الأميركانية ليرضع من حليبها المخصب، ولا يحسبنَّ أحد أن ينابيعها غير قابلة النشف بل سيأتي يوم وتنفد كنوزها، وتطعن في السن وتزول أحراشها وغاباتها بفوس الصناعة، وتضعف الأراضي التي أنبتت زرعًا كثيرًا، فحينئذٍ تتجه الألحاظ نحو البلاد الإفريقية، ويتهافت الناس لاقتطاف أثمار كنوزها التي ما زالت تحتشد فيها من قديم الأزمنة، ويتعودن مناخ إقليمها في مدة قليلة، وستصبح هذه البلاد التي نحوم عليها الآن أكثر ريعانًا من غيرها، وتقوم فيها الممالك العظيمة، وفيها تكتشف الاكتشافات الغريبة التي تفوق لربما النجار والكهربائية عجبًا ودهشةً.

فقال يوسف: سيدي حبذا لو رأيت ذلك!

فقال فرغسن: مهلًا مهلًا يا يوسف فقد ابتكرت في رغبتك.

قال ديك: وقد بان لي أن الجيل الذي فيه تقتني الصناعة جميع الكنوز الأرضية سيكون جيلًا سيئًا، وعندي أنه لا تلذ فيه المعيشة، لأن الناس لكثرة ما يخترعون من الآلات والأدوات المجنسة سيكون مصيرهم أن يُبْتَلَعوا منها، وقد خال ببالي دائمًا أن اليوم الأخير يكون اليوم الذي فيه يسخن الناس ماعونًا عظيمًا بنارٍ تعادل قوتها قوة ثلاثة مليارات من حرارة الهواء، فتتأثر كرتنا من هذه القوة النارية العجيبة، وتطير متشتتةً في الفضاء الفسيح، وتذهب كالهباء المنثور.

قال يوسف: ويكون الأميركان لم يتقاعدوا عن الاهتمام في اختراع مثل تلك الآلة.

فقال العلَّامة: نعم؛ إن الأميركان قوم يحبون شغل المواعين، أعني بذلك اختراع الآلات، ولكن مالنا ولهذه الأحاديث علينا أن نتأمل بمناظر هذه الأرض البهية حيث أوتينا مشاهدتها.

فكانت أشعة الشمس الأخيرة تتلألأ في تلك الأراضي المزينة بالأشجار الباسقة، والحشائش والخضار الجميلة الشاهقة المثمرة ثمرًا عجيبًا، ولم تخل الغاب والأحراش من فضاء فسيح في وسطها؛ فكان مبينًا فيها بعض القرى، وحولها الآجام والسياجات العظيمة.

ثم شاهدوا نهر الملغزاري الذي يصطب ببحيرة تنغانيكا وهو ينثني بين الخضار، ويتناول المجاري الكثيرة المتجمعة في الأراضي الخزفية وقت فيضان المياه، أما الطائرون في العلا فكانوا يشاهدونها كنسيج شلالات

ملقاة على الجهة الغربية من تلك البقعة.

ثم شاهدوا المواشي السمان ترعى في الغياض الأريضة، وتتواري بين الحشائش المنتصبة، أما الأحراش فتراءت كباقة زهر تحتمي فيها الأسد والضباع والنمورة ليأمنوا فيها من شر حرارة النهار.

فقال ديك: ما أحلى هذه البلاد للصيد!... فإن رصاصة واحدة إذا أطلقت على الخيرة أصابت طريدة جديرة بها؛ فيا ترى هلَّا يمكننا أن نمتحن الأمر؟

قال فرغوسن: كلَّا أيها الخليل؛ فإن الليل يتهددنا بالعاصفة، والعواصف شديدة في هذه البلاد، لأن أرضها المسخنة بنيران الشمس تشبه المدافع الكهربائية.

قال يوسف: تكلمت في الصواب أيها المولى، لأن الحرّ متزايد والهواء فاسد، وكل منا يحس بقرب حدوث شيء خارق العادة.

قال فرغوسن: إن الجوّ محمل بالكهربائية، وكل ذات حية تشعر بحالة الهواء السابقة تناقض العناصر، وأقر معترفًا بأني لم أتأثر قط من ذلك مثل هذه المرة.

فقال ديك: حيث الأمر كذلك؛ ألا يوافقنا النزول إلى الأرض؟

فقال فرغوسن: أحبُّ إلى الصعود من النزول، ولا أخشى سوى أن يدفعني إلى خارج طريقي تصلب المهبات الجوية.

قال ديك: أتريد أن تسير إلى جهة غير التي سرنا إليها حتى الأن؟

قال فرغوسن: إذا استطعت فإني أتجه ذات الشمال مدة سبع إلى ثماني درجات لعلي أرتقي إلى عروض ينابيع النيل الموهومة، وأشاهد هنالك بعض آثار لرحلة القبطان أسبيك، أو لقافلة دي هلكين، وهوذا؛ نحن الآن في الدرجة 40̊ 32̊ طولًا، وأرغب في أن أقفو أثر خط الاستواء باستقامة.

فقاطعه ديك في الكلام، وقال له: انظر إلى هؤلاء البرانق؛ كيف تتسلق الأرض لتخرج من البحيرات، وهؤلاء التماسيح التي تصيح ملتمسة الهواء لتستنشقه.

قال يوسف: لقد ضاق تنفسها، ولكن أما تنظران إلى هذه الزمرة من الحيوانات التي يزاحم بعضها بعضًا في مسيرها، لربما هي ذئاب، وأظن أنها تبلغ عدد المائتين.

قال فرغوسن: كلَّا يا يوسف؛ فإنْ هذه إلّا زمرة كلاب وحشية باسلة لا تخشى مصارعة السباع، وإذا التقى بها مسافر فيا لتعاسته؛ لأنها تمزقه إربا في الساعة والحال.

فقال الخادم: وأنا لا آخذ على نفسي أن أضع لهنَّ الكمامة، وإذا كانت الشراسة من دأبهنَّ فما لي ولهن؟!

ثم تكاثف الهواء، فأصبح الرفيق لا يسمع صوت رفيقه، واختبأت الطيور في الأشجار ودلت الطبيعة كلها على أنه عن قريب ستغمر الأرض بمياه أمطار وابلة.

وفي الساعة التاسعة مساء حامت المنصورة فوق ضيع قطر مسنة، وكانت بالكاد تمتاز للبصر لتكاثف الظلام.

فقال ديك وهو يستنشق بملء رئتيه من ذلك الهواء المتراخي: وما هذه الحال؛ فإني أوشك أن أختنق؟!... والباين أننا لا نتحرك في هذا الفضاء؛ هلَّا يوافق نزولنا إلى الأرض؟!

فقال فرغوسن، وهو في اضطراب: ألا تبالي بالعاصفة المقبلة؟!

قال ديك: إذا كنت تخشى أن يدفعك عصف الرياح، فلا حيلة لك إلَّا النزول وتطمئن هناك من كل غائلة.

فقال يوسف: وربما لا تبدو العاصفة في هذه الليلة، لأن السحب عالية جدًا.

قال فرغوسن: وهذا الأمر مما يجعلني أرتاب في الارتقاء إلى فوقها؛ حيث يلزمنا الصعود إلى علو شاهق جدًا، ولا نعود نعرف ليلتنا كلها؛ إذا كنا سائرين أم واقفين.

قال ديك: بَدَارِ أن تبت رأيك الآن لئلا يفوتك الأوان.

قال يوسف: لسوء حظنا سقط الهواء، ولولا ذلك لكان دفعنا بعيدًا عن مقرّ العاصفة.

قال فرغوسن: إن ذا مما يوجب الكدر؛ فإن السحب هي لنا ذات خطر مبين؛ حيث إنها حاوية مجاري متضادة، قابلة أن تدمجنا في هبائها، وبروقًا نارية نخشى منها أن تحرقنا، ثم إذا نزلنا إلى الأرض وربطنا المرساة في رأس شجرة فإن هبة واحدة من الريح العاصفة ترمينا إلى الأرض وتوهن قوانا وقوة منصورتنا.

قال ديك: وما العمل إذًا، وما الحيلة؟

قال فرغوسن: عندي أن نبقى في طبقة وسطى بين ويلات الأرض وأخطار السماء، لبينما يفرجها المولى ويفتح لنا باب الرحمة وله الحمد فإن عندنا ماء غزيرًا لإضرام نار القصبة، وثلاثة وثلاثين رطلًا من ثقل الرمل نلقي منه عند الحاجة.

فقال الصياد: ونسهر معك في هذه الليلة.

قال فرغوسن: لا حاجة إلى ذلك يا خليليَّ، بل ضعا زادنا في الحمى وناما بسلام، وإذا مست الحاجة أوقظكما حالًا.

قال يوسف: ولكن ألا يوافق أن تنام أنت أيضًا؛ إذ ليس ما يتهددنا الآن؟

قال فرغوسن: كلَّا يا يوسف؛ فإني أحبُّ السهاد، ونحن الآن غير متحركين، وإذا لم يحدث شيء فنبقى غدًا في المحل نفسه الذي نحن فيه.

فتدثر ديك ويوسف باللحاف وتمددا في المركبة ورقدا، ومكث فرغوسن وحده ساهرًا في السماء الوسيعة.

ثم أخذت الغيوم بالنزول رويدًا رويدًا، وتكاثفت الظلمات وتراكمت؛ بعضها فوق بعض، وأحاطت السوداء كدائرةٍ حول الكرة الأرضية كأنها مزمعة أن تسحقها.

وعلى الإثر أضاء برق سريع في ذلك الظلام، ولم ينته من لمعانه إلَّا قصف الرعد ودوى صوته في أعماق السماء.

قال فرغوسن: هيا بنا يا رفاق؛ انهضا!

فللحال نهض ديك ويوسف من قوة قصف الرعد الذي ردفه صوت فرغوسن، ووقفا ينتظران أوامر العلَّامة.

فقال ديك: وهل ننزل؟

قال فرغوسن: كلَّا؛ فإننا لا نطيق النزول، ولكن هيا بنا أن نصعد إلى العلاء، قبل أن تتحول هذه السحب إلى مياه، وتعصف زوابع الرياح.

ثم أضرم نار القصبة بقوةٍ وأخذت المنصورة في الارتفاع.

أما العواصف في تلك البلاد فإنها تمتد سريعًا وتشتد كثيرًا، وما مضت برهة إلَّا أومض البرق ولمع في الغيوم، ثم ارتدفه عشرون برقًا آخر حتى أمست السماء مخططة بشررٍ كهربائية، أخذت في التساقط مع الأمطار الوابلة.

قال فرغوسن: قد تأخرنا في تنفيذ مرامنا، وينبغي علينا الآن المرور بمنطقة نارية بقبتنا المفعمة هواءً قابل الاشتعال.

أما ديك فما زال يراجع كلامه ويقول: علينا بالنزول.. علينا بالنزول!

قال فرغوسن: سواء أصعدنا أم نزلنا فلا يزال خطر الصاعقة محيقًا بنا، وزِدْ على ذلك أننا إذا نزلنا إلى الأرض تشققت قبتنا حالًا بأغصان الأشجار.

فقال ديك: أرى أننا نعلو الآن.

قال فرغوسن: طلاعِ طلاعِ.

وما برحت البروق المتتابعة في وميض ولمعانٍ كالأسنة في القتال، والرعد في قصيف وعجيج، وشوهدت السماء كأنها شعلة نارية ماججة اللهيب والريح تهب هبوبًا شديدًا في دامس الظلام، وتلوي لها السحب المستنيرة بالبروق وكأن آلة نارية عاملة من العلاء على إضرام النار ونشرها.

ومكث فرغوسن محافظًا على قوَّة حرارة القصبة، والقبة تمتد وتصعد إلى العلاء، وكان ديك جاثيًا على ركبتيه وسط المركبة وهو ماسك بأطراف الخيمة، لكن القبة كانت تدور دورانا يدوخ الرأس، وقد اضطرب المسافرون من شدة حركتها والرياح تصدم القبة وتجورها في بعض الأماكن فتنضغط ضغطًا عظيمًا، ثم أخذ البرد في الهطلان، وأتبعه ضجة ولغط، وأما القبة فما انفكت تسير مرتفعة وحولها تدور البروق بخطوطٍ نارية يلاقي بعضها بعضًا.

فقال فرغوسن: في حفظ الله تعالى؛ هانحن أولاء بين يديه، فليفعل بنا ما يشاء، ومنه وحده نرجو نجاتنا من تهلكنا، وعلينا يا صاحبي أن نكون على حذرٍ من كل طارقةٍ وبلية، وربما تحترق قبتنا فلا يكون سقوطنا إلى الأرض سريعًا جدًا.

فيكاد يبلغ صوت فرغوسن آذان الرفيقين، لكنهما كانا يشاهدانه في صفاء وهدء تامين وسط البروق، وعيناه شاخصتان بأجيج النيران المحيقة بقبته.

وما انفكت القبة تدور وترتقي إلى فوق، فمضت ربع ساعة وإذا بها قد

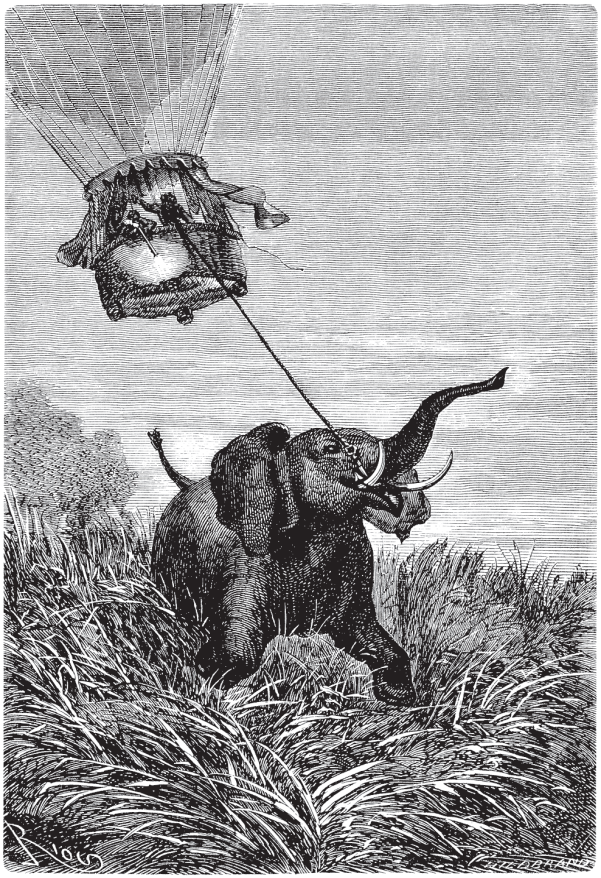
تجاوزت حدود منطقة السحب، وأخذ المسافرون حينئذٍ في مراقبة تلك الأشعة الكهربائية تحتهم كإكليل ناري يتوج السحب، وكأن ذلك الإكليل مركوز في أسفل المركبة، وكان هذا المنظر من أجمل المناظر الطبيعية التي يشاهدها الإنسان؛ لأن العاصفة أسفل والسماء أعلى مرصعة بالنجوم والكواكب، وهي صافية لا غيم فيها، والقمر يلقي أشعته على تلك الغيوم المضطربة.

فتطلع فرغوسن في البارومتر ورأى أنهم في علو اثني عشر ألف قدم عن الأرض، ونظر إلى الساعة فكانت الحادية عشرة ليلًا.

ثم قال: شكرًا لمولانا؛ فقد زال عنا الخطر وبلغنا منانا، وينبغي علينا أن نحافظ برهة على هذا العلو.

فقال ديك: ويلاه ويلاه!... ما كانت أرهب تلك الساعة!

قال يوسف: وقد شاهدنا هذه المرة شيئًا جديدًا في رحلتنا، وإني مسرور الخاطر لمشاهدتي العاصفة من المعالي؛ فإنه مشهد يروق للناظر.



الفصل الخامس عشر

في بحر الخضرة ومصارعة الفيل والعشاء في البرية والمبيت فيها

ولما دخلت الساعة الرابعة صباحًا، تراءت الشمس من وراء الأفق، وتبددت السحب من السماء، وهبَّ في تلك الدقيقة نسيم الصباح، وهو نسيم رخيم ينعش الفؤاد.

ثم ظهرت لديهم الأرض المتأرج عرفها؛ إذ إنهم لم يحيدوا عن الناحية التي مكثوا فيها مدى الليل كله، فخفف فرغوسن حرارة القصبة، وابتدأت القبة بالنزول، وذلك لكي تتجه إلى الناحية الشمالية، فبذل العلَّامة مجهوده ليجد طبقة هوائية موافقة لغرضه، فما نجح مسعاه، بل ما برح الهواء يدفع المسافرين إلى الجهة الغربية، حتى أتوا على مرأى من جبال القمر المشهورة، التي هي على هيئة نصف دائرة حول رأس بحيرة تنغانيكا وسلسلتها الظاهرة في الأفق اللازوردي، والوعرة جدًا والصعب الصعود عليها، وأشبهت بحصن منيع يصد المسافرين عن المرور، وفي بعض ذراها قامت ثلوج مستديمة.

فقال فرغوسن: هوذا، نحن في بلاد لم يأتها المسافرون للفحص عنها، وقد توغل القبطان برتون كثيرًا في الجهة الغربية، لكنه قط لم يتوصل إلى هذه الجبال العظيمة، بل إنه أنكر وجودها خلافًا لرأي رفيقه أسبيك الذي أثبت وجودها، وزعم برتون أنها خالت في عقل رفيقه كشبح خيالي، أما نحن الآن فقد تأكد لنا وجودها، ولا يعترينا الريب بذلك.

فسأل ديك وقال: هل نجوز هذه الجبال؟

قال فرغوسن: إن شاء المولى فلا نفعل ذلك، وأؤمل وجود طبقة هوائية يكون فيها مهب ريح تدفعنا إلى خط الاستواء، وإذا لزم الأمر أنتظر برهة إلى أن تهب ريح موافقة لغرضي، كما يفعل في المراكب التي تلقي المراسي في البحار عند هبوب رياح مخالفة لمسيرها.

وإذ كان يمتحن ساموئيل الطبقات الهوائية صادف ما وافق مسعاه، فسارت القبة في جنوبي شرقي إفريقية بسرعة وسطى.

فتطلع في البوصلة وقال: هانحن أولاء سائرون في الجهة الموافقة، ونعلو على الأرض بنحو مائتي قدم، وليس ما يصدنا عن مشاهدة الأصقاع التي نمر بها، ولما كان القبطان أسبيك منطلقًا إلى اكتشاف بحيرة أوكروي سار إلى الناحية الشرقية؟ ومرَّ على خط مستقيم فوق مدينة كازه.

قال ديك: وهل يطول مسيرنا هكذا؟

قال فرغوسن: ربما يطول قليلًا؛ حيث مرادنا أن نتقدم إلى جهة ينابيع النيل، ولكي نبلغ الحد الذي بلغه المسافرون المقبلون من الشمال فيجب علينا المسير مسافة ستمائة ميل ونيف.

فقال يوسف: وهلَّا ننزل إلى الأرض لنحرك أقدامنا المتخدرة؟!

قال فرغوسن: بلى، ومع ذلك يجب علينا توفير زادنا، ولكن عند نزولنا سَيَمْأَنُنَا ديك لحمًا طريا.

قال ديك: ها أنا ذا بين يديك يا خليلي.

قال فرغوسن: ويلزمنا أيضًا أن نجدد زاد الماء، ولا أعلم؛ هل تدفعنا الريح إلى أصقاع قاحلة، وبناء عليه يلزمنا أن نأخذ احتياطنا من ذلك القبيل.

وعند الظهر حامت المنصورة في درجة 15° 29° طولًا، 15° 3° عرضًا، وقد اجتازت بقرية أيوفو، وهي حد أونيام وازي الشمالي، بعد مرورها على بحيرة أوكروي.

أما الأقوام القريبة من خط الاستواء فتفوق تمدنًا على غيرها من أواسط إفريقية، ويتولاها ملوك ذوو سلطة مطلقة؛ فيجورون على رعيتم، ويبغون بغيًا عظيمًا، والإقليم الذي تكثر فيه السكان المتآلفون بعضهم مع بعض هو الإقليم المعروف بقراغوا.

فاجتمع رأي المسافرين الثلاثة على أن ينزلوا إلى الأرض في أول محلة مناسبة لغرضهم، وكان مرادهم أن يمكثوا عليها برهة طويلة، ثم نظر فرغوسن إلى القبة وجمع أطرافها ليرى إذا كان اعتراها شيء من الخلل، فخف العلَّامة حرارة القصبة، وبعده تدلت المراسي، فأخذت تجر على حشائش كثيفة مساوية السطح يبلغ علوها نحو سبعة إلى ثمانية أقدام.

ولم تكن تلوي تلك الخضار لمرور المركبة فوقها، ولا تتخللها حجارة ولا

أشجار، بل إنها كبحرٍ عرموم لا هادية فيه.

فقال ديك: أرى أننا نسير كثيرًا في هذا المرج الفسيح، لأني لا أرى شجرة يمكن أن نتعلّق بها، وأظن أنه قد قامت دون الصيد موانع ومصاعب كثيرة في هذه الأماكن.

فقال فرغوسن: مهلًا يا ديك مهلًا؛ ألا ترى أنك لا تستطيع الصيد بين خضارٍ تعلو قامتك؛ فإننا عن قريب نصل إلى مكان يوافقنا.

وفي الحقيقة كان مسيرهم الهوينا في ذلك البحر المخضر المفلقه مهبُّ النسيم مما يطرب الفؤاد ويسرّ الخاطر، وقد أتى اسم المركبة طبق المسمى، لأنك كنت تراها كأنها تشق الأمواج والطيور ذات الألوان البهية، تتطاير أحيانًا من تلك الخضار مناغية بأصواتها الشجية في تلك الروضة الزهية، وقد خطت المراسي المتدلية خطًا شبيهًا بالخط الذي ترسمه السفينة في البحار.

وفيما هم سائرون هكذا إذ صدمت القبة شيئًا انتفضت منه، فظن المسافرون أن المرساة تعلّقت بإحدى الصخور المتوازية بين تلك الخضار.

فقال يوسف: قد تعلّقنا يا مولاي.

فقال ديك: عليك بإلقاء السلم.

فما تفوه بهذا الكلام إلَّا ضجَّ صراخ حادّ في ذلك الفضاء، فاندهش المسافرون من ذلك، ورفع جميعهم صوتًا واحدًا قائلين: وما هذا؟!

فقال واحد: هذا صوت غريب.

وقال آخر: العجب العجاب؛ إننا سائرون!

وقال آخر: قد انحلت المرساة.

فقال يوسف: وهو ماسك بالحبل يحاول جره: الباين أنها مستمسكة جيدًا.

فقال ديك: ويحك؛ وهل يسير بنا الصخر؟!

فما مضت برهة إلّا شاهد المسافرون شيئًا مستطيلًا ومتلويًا فوق الخضرة.

فقال يوسف: لا ريب في أنها حية رقطاء تمشي بنا.

فقال ديك: أهي حية .. ودك سلاحه متأهبًا لإطلاق الرصاص عليها.

قال فرغوسن: كلَّا، ولم تصيبا يا خليلي؛ فما هذا إلّا خرطوم فيل، والفيل هو الذي يجرنا.

فتأهب الرفيقان واستعدا لإطلاق الرصاص عليه.

فقال فرغوسن: اصبرا قليلًا؛ فإن ينطلق بنا إلى ناحية موافقة لنا.

وبعد أن سار الفيل في ذلك البحر الأخضر، تراءى لأعينهم في بقعة خالية من الخطوة بأكثر جلاء، ومن قامته الشامخة العلو علم فرغوسن أنه ذكر من طائفة حسنة جدًا، وله نابان يلمعان بياضًا ذوا انثناء لطيف، ويمكن أن طولهما يبلغ ثمانية أقدام، ثم بصروا بالمرساة فرأوا أن أطرافها تعلّقت بنابيه وتمكنت بهما.

فما برح الفيل يسعى ويحاول التملص منها فذهب سعيه هدرًا.

فقال يوسف وقلبه طافح بالسرور: هيا بنا هيا يا فيلًا أمينًا؛ فقد تنوعت كثيرًا هيئة سفرنا في هذه البلاد، إذ أخذ فيل يجرُّ مركبتنا كما تجر أحيانًا السفن بعضها بعضًا، ونِعْم السفر على هذا النحو.

فقال ديك: وإلى أين ينطلق بنا، «وكان سلاحه بيده»، وقد عيل صبره من انتظار أمر فرغوسن لإطلاق الرصاص».

قال فرغوسن: اعتصم قليلًا بحبل الصبر يا خليلي؛ لأننا منطلقون إلى جهة حسنة.

أما يوسف فما زال يحث الفيل بكل أنواع الألفاظ والعبارات اللطيفة، ويصرخ بأعلى صوته: حُوحُو هيا يا هجين البراري الإفريقية، سر بنا سر بنا إلى قدام.

ثم ابتدأ الفيل في العدو السريع، وهو يلوي خرطومه ذات اليمين وذات الشمال، وفي أثناء قفزه كانت تهتز القبة هزة شديدة، فهيأ العلَّامة فأسا ليقطع الحبال المعلّقة عليه المرساة إذا ألجأته إلى ذلك الضرورة.

لكنه قال: لا أرغب في أن أعتقه إلَّا وقت الضيق.

فدامت تلك الغارة نحو ساعة ونصف، والفيل لا يحس بتعب ولا كد، وقد قيل عن هذه الحيوانات ذات الخرطوم إنها تعدو عدوًا بليغًا، ومن يوم إلى يوم تشاهد في أمكنة بعيدة بعضها عن بعض، بمسافات شاسعة، وتشبه كثيرًا بحيتان البحر العظيمة بجسمها وسرعة عدوانها.

فقال يوسف: في الحقيقة ما صنيعنا إلَّا ويشبه صنيع صيادي الحيتان لأننا أدلينا الخطاف فتعلّق به الفيل كما تتعلّق الحيتان بخطاطيف صياديها.

أما فرغوسن فاضطرَّ إلى أن يغير مسيره، وينفك من قائده لما تراءى أمامه في شمالي المرج من تغيير هيئة تلك الأراضي؛ إذ شاهد عن بعد ثلاثة أميال حرشًا فيه الأشجار المتكاثفة، فأوعز إلى خليله ديك قائلًا: دونك والفيل؛ فإنه يجب علينا توقيفه عن مسيره، فرفع ديك سلاحه وأطلق الرصاص، ولما كان في مركز لا يتمكن به من تحكيم طلقته أصابت الرصاصة رأس الفيل فانبسطت على جلده لكنه لم ينزعج من تلك اللطمة بل عندما طرق آذانه دوي تلك الضربة رمع في سيره، وأخذ يعدو عدوًا شبيهًا بسباق الخيل.

فقال ديك: ويلاه؛ فإن الرصاص لم يؤثر في رأسه!

قال يوسف: إن رأسه لأصلب من الصخر.

قال ديك: ومرادي أن أطلق الرصاصة على كتفه، ثم دك سلاحه وأورى الزناد فصاح الفيل بصوت هائل وما برح يعدو.

فقال يوسف: سيدي ديك يلزمني أن آتي بأيدك، وإلَّا لا ينتهي العارض، فدكَّ سلاحه وأطلقا كلاهما رصاصتين فأصابتا جوانب البهيم.

فعند ذلك وقف الفيل برهة ورفع خرطومه ثم عاد إلى جريه يهز برأسه، ودمه يسيل من جراحه سيلانًا وافرًا.

فقال يوسف: علينا أن نجعل نارًا دائمة.

فقال فرغوسن: ونارًا مستعرة اللهيب، لأننا لا نبعد عن الغابة أكثر من ستين ذراعًا، فأوقدوا النار الدائمة فقفز الفيل قفزة هائلة ارتجت لها القبة ارتجاجًا عظيمًا حتى أوشكت أن تتمَّزق قطعًا ووقع الفأس حينئذٍ من يد العلَّامة إلى الأرض فأصبح المسافرون حينئذٍ في حالة مخيفة، اضطربت لها أفئدتهم، لأن المرساة كانت ممكنة في الفيل فلا يمكن قطع الحبل بالسكاكين التي كانت مع المسافرين، وما انفك الفيل يتقدم نحو الغاب وعند دنوه منه رفع رأسه قليلًا فأصابته رصاصة فقأت عينه فوقف ساعتئذٍ واضطرب، ثم انثنت ركبتاه وكشف جانبه إلى الصياد.

فقال ديك: هاك رصاصة في قلبك يا فيل السوء ورماه برصاصة أخيرة.

فزأر الفيل وزمجر وهمهم كمدًا ومنازعة ثم نهض على قوائمه وعقف خرطومه فسقط بثقله كله إلى الأرض، على أحد نابيه فتحطم تحطما، وكانت تلك الساعة ساعته الأخيرة.

فقال ديك: قد تحطم نابه، وهو من العاج الذي يَسْوَى في بلادنا؛ كل عشرين رطلًا 35 ذهبًا إنكليزيًا.

فقال يوسف، وهو نازل إلى الأرض، وماسك الحبل في نزوله: فإنه غالي الثمن على حسابك؟!

قال فرغوسن: وماذا ينفعك أسفك يا خليلي ديك؟!... هل ترى قد أتينا لنتاجر بالعاج، ونلتمس الغنى والأموال في هذه البلاد؟!... فصمت الصياد.

أما يوسف فنظر إلى المرساة، فرآها محكمة التعليق بناب الفيل الباقي سالمًا، ثم قفز العلَّامة وديك إلى الأرض، ولبثت القبة المنفوخة بنصفها مرتكزة على جسم الحيوان.

فعند نظر ديك إلى الفيل قال: وما أجمله وأعظمه!... فإني لم أر في بلاد الهند فيلًا له قامة شبيهة بهذه القامة النمرودية.

قال فرغوسن: لا عجب في ذلك؛ لأن الفيلة في البلاد الإفريقية تسمو ظرافة

وجمالًا، وطالما قد سعى في صيدها أقوام في سواحل الجنوب، ولذا قد هجروا إلى خط الاستواء، حيث سنراهم مجتمعين بشرذمات.

فقال يوسف: أما الآن فإني عازم على أن أطبخ طعامًا لذيذًا مدهنًا من هذا الحيوان، وأنت يا ديك اذهب واصطد ما شئت مدة ساعة أو ساعتين، ريثما سيدي يناظر القبة ويصلح فيها ما شاء.

قال فرغوسن: هاك أوامر مناسبة؛ فافعل إذًا يا يوسف ماشئت.

قال ديك: أما أنا فإني منطلق لأصطاد مدة الساعتين اللتين سمح لي يوسف بهما.

فقال فرغوسن: انطلق يا صاحبي، ولكن كن حريصًا ولا تبتعد عنا كثيرًا! فتسلح ديك ببارودته ودخل الغاب، وجعل يوسف يهتم بتتميم وظيفته، فاحتفر في أول الأمر ثقبًا في الأرض، يبلغ عمقه قدمين، وأملأه خشبًا يابسًا كان منتشرًا بكثرة على الأرض، ومحطمًا من فيلة قد مرت من هنالك، كما دلَّ عليه آثارها، وبعد أن امتلأ الثقب، ووضع فوقه حطبًا كثيرًا عاليًا عن

الأرض بنحو قدمين وأضرم فيها النار، ثم أقبل إلى الفيل الساقط بعيدًا عن الغاب بنحو ثلاثين ذراعًا، وحسم خرطومه البالغ عرضه نحو قدمين في مخرجه، ثم فصل فدرة من لحمه، وضمَّ إليها إحدى قوائمه اللدنة جدًا؛ فإن القوائم في الفيل هي القطع الأفخر والألطف من جميع لحومه كالرجل في الدب، وكالرأس في الخنزير الوحشي.

وبعد انحلال النيران في الثقب قام يوسف بإشعال الرماد والحطب منه، فكانت الحرارة قوية وسط الثقب، فلفَّ قدر اللحم بورق العشب، ووضعها في عمق ذلك الثقب المتأجج حرارة، ثم غطاها برماد سخن، ووضع حطبًا فوق الرماد، وبعدما أشعلها مدةً رفعها، فوجد اللحم قد شوي ونضج على أحسن أسلوب.

فأخذها وجعلها على أوراق خضراء، ثم رتب الطعام على الحشيش الرطب، وأحضرا الكعك والعرق والقهوة، ثم استقى ماءً عذبًا من ساقيةٍ كانت جارية في تلك الخضار.

فأصبحت تلك الوليمة مما يطرب الخاطر لها، وظنَّ يوسف أن تناول الطعام شأنه أن يزيد النظر بهجة وسرورًا.

وقد قال في نفسه: ما أحلى وألذ من هذه المعيشة!... لأننا نسافر في أقطار وسيعة بلا تعبٍ ولا خطر، ونأكل ونشرب في الأوقات اللازمة، فما تراه خائسًا علينا، ومع هذا كله لم يكن الخواجا ديك يشاء مرافقتنا.

أما العلَّامة فرغوسن فانشغل بفحص مدقق عن أدوات القبة الهوائية، فرأى أنها قد قاومت ما حصل لها من الضغط مذ مدة، ولم يحصل لها

خلل من ذلك ثم قاس علو تلك الأرض المقيم فيها، وحسب قوة القبة الرافعة فسر لرؤيته أنها لم تفقد شيئًا من الإدروجن، ونظر إلى الغطاء الخارج فشاهد أن المادة الصمغية المدهون بها الغطاء لم يعترِها أدنى فساد، ولا يمكن أن يتخلل القبة بجهة من جهاتها لا الهواء ولا الماء.

ثم نظر إلى الزاد فكان غزيرًا، وقد مكثوا في رحلتهم من زنجبار إلى ذاك المكان مدة خمسة أيام ولم ينفد منه إلَّا ما قلَّ، ولم يَحْتَج العلَّامة إلَّا إلى التزود بالماء من جديد.

أما الأنابيب وغيرها من أدوات تخفيف الحرارة ونموها فلبثت سالمة من كل غائلة، ولم يضر بها قط ما حصل للقبة من الاضطراب وقت ارتقائها فوق الغيوم وامتطائها الفيل.

وبعدما فرغ من الفحص عن منصورته، أخذ يرسم هيئة تلك البرية المحيطة بهم مع المرج الواسع والحرش المقابل لهم، ورسم أيضًا القبة منتصبة على الفيل ذي الجثة.

وفي غضون ساعتين من الزمان أقبل ديك ومعه الأحجال المدهنة وأفخاذ بعض الحيوانات اللذيذة، ففوض إلى يوسف أن يشوي منها شيئًا زيادةً على ما هيأه من العشاء.

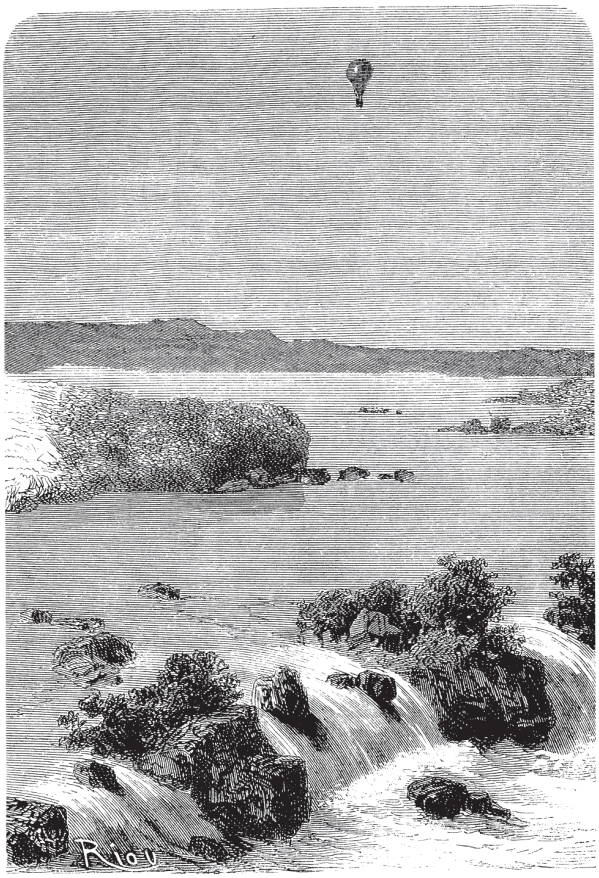
قال لهم يوسف: هوذا العشاء حاضر، فتفضلوا نأكل، ففي الحال قد جلس ثلاثتهم على ذلك البساط الأخضر، وتناولوا الطعام ووجدوا لحم الفيل لذيذًا جدًا وشهيًا للأكل، ثم شربوا على ذكر الأوطان، وأخذوا في تدخين التبغ في تلك الأراضي الزهية التي لم يسبقهم إلى التدخين فيها أحد

قط منذ نشأتها.

وكان ديك يأكل ويشرب بفرح وطرب، ويتكلم كثيرًا، وقد بلغ منه مبلغ الثمول، حتى إنه عرض على رفيقه العلَّامة بجدٍ أن يبنوا لهم هنالك كوخًا وأن يمضوا فيها ما بقي لهم من الأيام في الرغد والهناء، وعليه يعيشون هكذا عيشة رُبنسون الشهير فيكون يوسف بمنزلة صاحبه الملقب بوندردي «أي الجمعة». ولما رأى العلَّامة أن هذا الصقع خالٍ من سكان اطمأنَّ، فعزم على أن يبيت ليلته مع رفيقيه على الثرى، فقام يوسف وهيّأ متراسًا من النيران حول فرشهم، لكي يمنع وثبات الوحوش الكاسرة التي لابد من وجودها في تلك القفار، فضلًا عن أنه يمكن أن رائحة لحم الفيل تجتذب في تلك الليلة بعضًا من الضباع وأبناء آوى وغيرها من الحيوانات، فأطلق كنادي الرصاص مرارًا عليهنَّ، ولكن مضت ليلتهم كلها دون أن يدهمهم عارض سوء البتة.

الفصل السادس عشر

في ما كان من بحيرة أو كاروه ومبيت المسافرين على جزيرة قفرة
ومشاهدتهم عيون النيل وإمضاء أندريا ديبنو



ولما أصبح الصباح، واستيقظ الرفاق من الرقاد، نحو الساعة الخامسة، أخذوا يتأهبون للرحيل، فحطم يوسف نابي الفيل بالفأس الذي وجده، بعد أن وقع من يد العلَّامة كما ذكر ولما جلس ثلاثتهم في المركبة ولم يعد يعيقها عائق، ارتفعت إلى العُلَى، ودفعت الريح المنصورة إلى الجهة الشمالية الشرقية، فقطعت 18 ميلًا بالساعة.

وكان قد حسب فرغوسن درجة مركزه من علو النجوم في الليلة السالفة فعرف أنه في درجة 40 2ْ عرضًا تحت خط الاستواء، أي على مدى منه بمائة وستين ميلًا جغرافيًا، ثم مرُّوا بقرى عديدة غير مكترثين بما كانوا يسمعون من الصراخ والضجيج المتصاعد إليهم من الذين كانوا يشاهدونهم مارين فوق رؤوسهم، وأخذ فرغوسن رسم تلك الأراضي مع ما تراءى له من المناظر ثم جاز بربوات روبمهي الوعرة كرؤوس جبل أوزاغارا ولما وصل إلى تنغا شاهد بداية ذرى سلاسل كراغوه التي

ظنها مشتقة من جبال القمر، وقد قرب إلى الحقيقة ما كان يقال في الحكايات القديمة أن هذه الجبال هي مهد لبحر النيل، لأنها متاخمة لبحيرة أوكاروه، وقد زعم كثيرون أن هذه البحيرة هي الجامع الذي منه تجري مياه ذاك النهر العظيم.

ثم شاهد أخيرًا فرغوسن من الأفق تلك البحيرة المشتهاة، التي بصر بها القبطان أسبيك بدون تحقيق في اليوم الثالث من شهر آب سنة 1858م، وكان نظر العلَّامة إليها من كافورو، وهي مقاطعة وسيعة لتجار تلك البلاد.

فتحركت عند ذلك شعائر فؤاده، لأنه قرب إلى مركز إحدى المقاصد ذات الأهمية الجزيلة التي عانى بشأنها تلك السفرة الجوية، فوضع المنظرة على عينيه، وجدَّ في التبحر فيها والتأمل بجميع نواحيها وأطرافها، فكانت الأرض تحت أقدامه جدباء قاحلة، وقلما يصادف فيها بعض الوديان النابتة زرعًا.

ولما كانت الأرض مرتفعة في جملة أماكن رآها آخذة في استواء سطحها كلما قربت إلى البحيرة، ثم بدأت تتراءى لأعينه حقول الأرز، ويليها حقول الشعير وغيرها من النبات التي يستقطر منه الخمر، ثم المواني وهو نبات يقوم مقام القهوة، وهناك عاصمة كراغواه المؤلفة من نحو خمسين كوخًا يغطيها القش وتحيط بها بساتين مزدانة بالزهور.

وقد بصر المسافرون من منصورتهم هيئات القوم الجميلة الباهتة الضاربة إلى اللون الأصفر المسمر، وشاهدوا أيضًا النساء ذوات الجسم الضخم المتماشية في حقول الزراعة، وقد تعجب يوسف وديك لما أعلمهما

فرغوسن أن سمن هؤلاء النساء مسبب عن اتخاذهن اللبن قوتًا يوميًا لهنَّ.

وعند الظهر وصلت المنصورة إلى درجة 1°45 من العرض الجنوبي وعقب مرور ساعات من الزمن دفعتها الريح إلى ما فوق البحيرة.

وقد دعا القبطان أسبيك تلك البحيرة باسم نيانزا فيتوريا وفي تلك الجهة أخذ فرغوسن يقيس البحيرة، وكانت ثمانين ألف متر، وعند طرفها الجنوبي لقي القبطان جملة جزائر فسماها جزائر البنغال، ثم تقدم إلى موانزا في الجهة الشرقية وهناك قابل السلطان فآواه بالإكرام وأضافه بلياقة ولطفٍ، ودار حول زوايا البحيرة الثلاثة لكنه لم يتمكن من وجود قارب واحد ليعبر به البحيرة، ويصل إلى جزيرة أوكاروه الكبرى الكثيرة السكان، وقد قيل عنها إنها مسودة من ثلاثة سلاطين، مع أنه لم يتحقق عنها إلّا أنها شبه جزيرة عند انخفاض المياه المحيطة بها.

فانحازت المنصورة إلى البحيرة من الجهة الشمالية على كره من العلَّامة الراغب في أن يجدد دائرتها على جهة الجنوب، أما سواحلها فكانت مملوءة أدغالًا كثيرة الأشواك، وأجمات ملتف بعضها على بعض، وتغطيها ربوات من البعوض الحالة عليها، وهي متحمة اللون، ولا يظن عن تلك المحلات أنها مسكونة أو قابلة السكنى، وكثيرًا ما كانت تتمرغ أفراس الماء بأحراش القصب ثم تعود راكضة إلى البحيرة لتتوارى في مياهها البيضاء.

أما الأفق المشاهد على مدى البحيرة فكان عريضًا، ولذا يخال للناظر أنها بحر متسع، والمسافة طويلة بين الطرفين، فلا يمكن لمن وقف على جهة

أن يبصر شيئًا من الجهة المقابلة، سوى الماء المتراكم، ولم تتألف العلاقات بين سكان كليهما، وخصوصًا لأن الأنواء والزوابع فيها شديدة وغالبة الحدوث، والرياح فيها عاصفة لأنها عالية ومكشوفة.

فشق على فرغوسن الاتجاه فوق تلك البحيرة، وكان يخشى أن تدفعه الريح إلى الجهة الشرقية، ولكن وافقه الحظ، ودفع ذات الشمال ولما صارت الساعة السادسة حلت المنصورة على جزيرة مقفرة في درجة 30 1ْ عرضًا، 52 2ْ3 طولًا، وهي بعيدة عن الساحل بنحو عشرين ميلًا إفرنجيًا.

فعلق المسافرون مرساتهم على شجرة، ولما أمسى المساء سكن الهواء، فقضوا الليلة بالهدوء والطمأنينة، وفي تلك الجزيرة لا يستطيعون النزول إلى الأرض لأن الناموس والبرغش تستر الأرض كسحاب متكاثف، ولما نزل يوسف إلى الشجرة لتمكين المرساة ثم عاد إلى مركزه أحس بلسع الهوام ولدغها من كل جانب، ولكنه لم يَسُؤه ذلك، بل قال إن اللسع من دأب تلك الهوام.

أما العلَّامة فرغوسن فلم يستصوب أن تفعل فيه طبيعة تلك الهوام، بل رخى ما استطاع من الحبل خشية أن يتصاعد إليه شيء من تلك البعوض البالغ إليه هديرها المخيف.

وقد عرف فرغوسن علو البحيرة فوق مساواة سطح البحر، فكان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين قدمًا كما حدده القبطان أسبيك.

فقال يوسف وهو يفرك بكفيه: هانحن هؤلاء مقيمون بجزيرة.

فقال الصياد: كنا نستطيع أن نطوف حواليها في برهة وجيزة، ولكن لا يسكنها ساكن إلَّا هذه الهوام اللطيفة الرقيقة الجانب.

قال فرغوسن: إن جزائر هذه البحيرة ليست سوى آكام عالية ومغمورة في المياه، وقد أصابنا حظ بمصادفة هذا الملجأ على هذه الجزيرة، لأن سواحل البحيرة لا يسكنها إلَّا أقوام برابرة فارقدا إذًا يا خليلي بسلام، لأن الليلة رائقة.

قال ديك: وهلَّا تحذو حذونا؟

قال فرغوسن: لا أستطيع أن أطبق جفوني؛ فإن هواجسي تجلب لي السهاد، ويجافيني النعاس من جراها، وأما غدا فإذا وافقتنا الرياح سرنا إلى الشمال بخط مستقيم، وربما اكتشفنا السر المكنون، وهو عيون النيل؛ فهل تظن أنني أرقد وأنا قريب من ينابيع هذا النهر الشهير؟!

فرقد ديك ويوسف بمحافظة رفيقهما العلَّامة، لأن الاهتمامات العلمية لم تكن تسبب لهما الهواجس والأفكار.

ولما أصبح صباح الأربعاء في 23 نيسان، رفعت المنصورة مرساتها، وكانت وقتئذٍ الساعة الرابعة، وكان غيم الظلام المحيق بالبحيرة يتبدد قليلًا فقليلًا، ولكن قد هبت الريح بعد برهة واضْمَحَلَّ غيم كثيف كان مظللًا مياه البحيرة، فارتفعت المنصورة إلى المعالي واضطربت في أول وهلة، ثم اتجهت نحو الشمال.

فصفق العلَّامة بكفيه، علامة الفرح والابتهاج، وصرخ قائلًا: هانحن أولاء في سبيل مستقيم، وإن شاء المولى نشاهد اليوم عيون النيل، وإلّا فلا نعود

نراها أبدًا ونجوز الآن بخط الاستواء وندخل في نصف الكرة الشمالي.

قال يوسف: وهل تظن يا سيدي أن خط الاستواء مار ههنا؟

قال فرغوسن: نعم يا خليلي الأمين.

قال يوسف: فأرجوك إذًا أن تأذن لي لكي أشرب على صحته حالاً؛ إذ إني أرى ذلك مناسبًا.

فضحك العلَّامة وقال: افعل ما بدا لك واشرب كاس عرقٍ إذا شئت، ولعمري؛ إن لك فنًا خاصًا بك، لكنه لا يخلو من الفطنة والحكمة.

وعلى هذا النسق كان احتفال مرورهم بخط نصف الكرة الأرضية من أعلى مركبتهم الهوائية.

ثم عجت الريح فأسرعت المركبة بالمسير فسارت ثلاثين ميلًا بالساعة فشاهد المسافرون الساحل الغربي منخفضًا قليل العوج، وسهلات أوغندا وأزوغا المرتفعة بعض الارتفاع.

وشاهدوا مياه البحيرة الهائجة تعلو بعنفٍ كأمواج البحر واستنتج العلَّامة أن البحيرة عميقة جدًا من مشاهدته بعض الأمواج تترجرج مدةً بعد سكون الهواء، فمرُّوا بتلك البحيرة كلها ولم يبصروا فيها سوى قاربًا أو قاربين.

فقال العلَّامة: لا بدع أن هذه البحيرة المرتفعة المركز هي الحوض الطبيعي الذي منه تجري مياه الأنهر التي في شرقي إفريقية، وما تجتذبه السماء إليها من الأبخرة تغشيه بالأمطار، وعندي أنه أمر مؤكد أن منبع النيل

من هذه البحيرة.

قال ديك: وهذا ما سنحققه إن شاء الله.

وعند الساعة التاسعة اقترب المسافرون من الجهة الغربية، فكانت قفرة ومخشبة، ثم هبت الريح نحو الشرق فدفعت المنصورة إلى الساحل الثاني من البحيرة، فكان منحنيًا وفي آخره زاوية مكشوفة في درجة 40 20ْ من العرض الشمالي، وفي هذه الجهة الأخيرة جبال شامخة ذات رؤوس قاحلة، ويخترق هذه الجبال مضيق عميق ذو ثنيات عديدة يجري فيه نهر مزبد المياه.

أما العلَّامة فكنت تراه محدقًا نظره بتلك المحلات مع اعتنائه بإدارة المركبة، وكان باذلًا جهده ألَّا يفوته شيء مما وجد بتلك النواحي.

ثم نادى رفيقيه وقال لهما: لقد صدقت حكايات العرب المتداولة بينهم بقولهم عن نهر منه تتحول بحيرة أوكاروه إلى الشمال لأن هذا النهر موجود بالحقيقة، وهانحن أولاء سائرون فوقه، وماؤه يجري سريعًا، وتحاكي سرعته سرعة منصورتنا، وكل نقطةٍ مما نشاهد من هذه المياه الجارية تحت أقدامنا تسير إلى أن تصب في البحر الأبيض، وما هي إلَّا من مياه النيل.

فصاح ديك: قائلًا: هاهو ذا النيل، وقد شارك العلَّامة رفيقه بابتهاجه وتعجبه معًا.

أما يوسف فقال: حيَّ الله النيل، ومن عادة يوسف أن يحيي أيًا كان وقت طربه وسروره.

وقد قامت صخور وجلاميد بين ضفتي هذا النهر السري فأعاقت مسير مياهه، ومما حقق العلَّامة في تخميناته مصادفته كثيرًا من مجاري المياه السريعة والشلالات المحكي عنها.

وشاهد سيولًا كثيرة لا يحصى عديدها نازلة من أعلى تلك الجبال المحدقة بالنهر والساقطة فيه، وفي الجهة الغربية كانت تنفجر مياه السواقي وتسير جميعها، وفي مسيرتها تحتشد سوية وتتسابق في الوصول إلى ذلك النهر الآخذ في التعاظم والتجسم شيئًا فشيئًا.

فقال العلَّامة: لا شك في أن هذا هو النيل، ولقد أشطَّ العلماء بالتفتيش عن أصل اسمه، كما أشطوا باستقراء منبعه فمنهم من أصله من اللّغة اليونانية، ومنهم من أصَّله من القبطية، ومنهم من أصَّله من الهندية القديمة[1]، ولكن مالنا الآن ولأصل اللفظة؛ إذ قد أوتينا مشاهدة منبع المياه.

قال الصياد: وكيف نؤكد أن هذا النهر ليس هو إلَّا ذاك الذي شاهده المسافرون الذين أتوا من الجهة الشمالية وأخبروا عنه؟

قال فرغوسن: إذا وافقنا الهواء سنجد بحوله تعالى عما قريب براهين ثابتة مقنعة لا رادَّ لها.

ثم افترقت الجبال بعضها عن بعضٍ، وقامت مقامها القرى والضياع الكثيرة والحقول المزروعة سمسمًا وذرة وقصب سكر، ولما مرت المنصورة

(1) وقد جمع أحد العلماء البيزنتيين أرقام نيلوس على ما في اللّغة اليونانية القديمة فبلغ عددها 365 يومًا وهي عدد أيام السنة بتمامها.

فوق سكانها هاجوا واضطربوا وأظهروا الغضب والعدوان، عوضًا عن أن يتأهبوا للعبادة؛ إذ أحسوا أن المسافرين أناس غرباء لا آلهة، وكأن من قصد النيل حاول أن يسرق منهم كنزًا مكنونًا أو جوهرة ثمينة، فاضطرت المنصورة أن تمكث سامية الارتفاع لئلا يبلغ إليها برقيل العبيد «والبرقيل آلة يُرْمَى بها البندق».

قال ديك: لا نستطيع أن نحط في هذه الأراضي بدون خطر.

فجاوبه يوسف وقال: إنما هم الخاسرون، لأنهم يعدمون لذة محادثتنا.

قال فرغوسن: لابد من النزول في هذا المكان، ولو ربع ساعة، وإلَّا فلا يمكنني أن أثبت رحلتي.

قال ديك: وهل لا بد من ذلك؟

قال فرغوسن: لا بد منه، ولو اضطرّتنا الأمور إلى المحاربة والمناضلة.

قال ديك: هذا مما يسرني، وأخذ في ملاطفة بارودته، وتأهب لإذخارها.

قال يوسف: نحن بين يديك؛ فَمُرْ بما تشاء، واستعد هو أيضًا للمبارزة والقتال.

قال فرغوسن: لا تكون هذه المرة الأولى التي استنجد فيها العلم قوة السلاح، لأن ذا الأمر جرى في أسبانيا لعلَّامة فرنسي، وهو يقيس ربع الدائرة الأرضية.

قال ديك: طمئن روعك يا فرغوسن وثق بمحافظين ما هرين.

قال يوسف: وهل وصلنا يا سيدي؟

قال فرغوسن: كلا، وينبغي لنا أولًا أن نرتفع إلى العلاء لنشاهد رسم هذه الناحية حق المشاهدة.

فامتد الإدروجن، وإذا بالمنصورة علت برهة عشر دقائق ألفين وخمسمائة قدم فوق الأرض، ومن هناك بصروا بشبكة لنهر لا يحصى عديدها، مختلط بعضها ببعضٍ، تصب مياهها في النهر العظيم وغيره أيضًا كانت تجري غربًا بين الآكام الكثيرة المحيقة بها الحقول المخصبة.

وفيما كان العلَّامة ينظر إلى الرسم الجغرافي قال: لسنا ببعيدين عن غندوكورو تسعين ميلًا، بل لا نبعد عن الحد الذي بلغه المسافرون الآتون من الشمال بخمسة أميال، فلنقترب إذًا من الأرض بتأنٍ واحتراز.

فهبطت المنصورة نحو ألفي قدم ونيف.

وحينئذٍ قال العلَّامة: يا رفيقَيَّ كونا على حذر؛ فإننا لا نعلم ماذا يطرأ علينا.

قال ديك ويوسف: هانحن أولاء على حذر.

فسارت المنصورة متتبعة آثار النهر وهي تعلوه نحو مائة قدم، وحَسَبَ تخمين العلَّامة بلغ عرض النهر في ذلك المكان مائة متر، وشاهد المسافرون سكان تلك القرى الكائنة على ضفتيه في اضطراب وشغبٍ، وفي الدرجة الثانية شلالة قائمة، علوها عشرة أقدام، ولا يمكن النزول بها.

فقال العلَّامة: هذي هي الشلالة التي دلَّ عليها موسيو ديبنو.

وكان حوض النهر آخذا في الامتداد رويدًا رويدًا، وبدأ المسافرون يشاهدون جزائر كثيرة منتصبة في وسطه، أما العلَّامة فما زال محدقًا بها ومشددًا نظره إليها، لكنه كان كالمحتار في أمره؛ إذ جعل يبحث عن مركز خفي ولم يكن يقع بصره عليه.

فتقدم بعض السودان في القارب إلى ما تحت المركبة، فقرأهم ديك سلامًا جميلًا بإطلاقه عليهم الرصاص فلم يصب أحدًا بل ألقى في قلوبهم الرعب والهلع، ولذا هرولوا راكضين إلى ضفة النهر.

فودعهم يوسف وقال: بحفظ الله وأمنه يا خلَّان، ولو كنت مكانكم لما تجرأت قط على الرجوع إلى هنا لكنت أخاف جدًا من وحش جوي يرمي الصواعق من العلاء على من يشاء.

وفيما هم على تلك الحال إذ أمسك العلَّامة نظارته على الفور ووجه بصره إلى جزيرة منتصبه وسط النهر.

وقال: هاك أربع.

وفي الحقيقة كانت أشجار أربع مرتفعة في طرف تلك الجزيرة.

ثم قال: هذه جزيرة بنغا.

قال ديك: وبعده ماذا يكون؟

قال فرغوسن: إن شاء المولى نزلنا هناك.

قال يوسف: ولكن أرى أن العبيد حالون عليها.

قال ديك: إن كلام يوسف طبق واقعة الحال؛ فإني أعاين نحو عشرين رجلًا مجتمعين في هذه الجزيرة.

قال فرغوسن: وهل يعيقنا هؤلاء عن إنفاذ مرغوبنا؟... فإننا نبدد شملهم.

قال ديك: إذا حسن ذلك لَدَيْكَ فأنا في يدك.

وعندما اقتربت المنصورة من الجزيرة كانت الشمس قد وصلت إلى السمت وناهزت الغروب.

أما العبيد الذين هم من قبيلة مكادو فإذ شاهدوا القبة الهوائية ضجوا في الصراخ، ورفع واحد منهم قلنسوته عن رأسه وجعل يهزها في الهواء، فاتخذها ديك هدفًا له ورماها برصاصةٍ فسقطت من يده متفرقعة، وذهبت شذر مذرَ فولت الشجاعة عن قلوب العبيد مدبرة، وخافوا من تلك اللطمة الجوية خوفا عظيمًا، وللحال أسرعوا جميعًا بالنزول إلى النهر، وجاوزوه بالسباحة، ومن هناك أخذوا يضربون القبة بالمجانق والجلاهق والأسنة، لكنها لم تصبها قط ضربة واحدة، ثم تعلّقت مرساة المنصورة بثقب صخر ونزل يوسف إلى الأرض في الساعة والحال.

فقال له العلَّامة: انصب لنا السلم، وأنت يا ديك تعال معي.

قال ديك: وإلى أين ولم؟!

قال: هلمَّ بنا نذهب سويةً لأنه يعوزني شاهد.

قال ديك: ها أنا ذا بين يديك.

قال فرغوسن: وأنت يا يوسف كن أمينًا في حراستك.

قال يوسف: كن مرتاح البال من هذا القبيل، فإني مسؤول بالجميع، ثم ذهب العلَّامة برفيقه إلى مجموع صخور منتصبة عند رأس الجزيرة، وهناك جدًّا في الفحص والتفتيش، وأخذ ينبش في الآجام حتى تخضبت يداه بالدم، ثم مسك فجأة بيد رفيقه وقال له: انظر إلى هاهنا.

قال: أرى حروفًا.

وفي الحقيقة كان حرفان منقوران في الصخر، وظاهران للعيان بجلاء وبيان، وهما A.D؛ أي أ. د.

قال فرغوسن: اعلم يا رفيقي، رفقك الله، أن أ. د. هما أول حرفي اسم أندريا ديبنو، وهو من سبق جميع الذين قصدوا اكتشاف عيون النيل في التقدم إلى هذا المكان.

قال ديك: إن ذا أمر لا ردَّ عليه.

قال العلَّامة: وهل عندك إشكال في الأمر الآن؟

قال: إنما هذا النيل ولا ريب فيه.

ثم نظر فرغوسن إلى هذين الحرفين الثمينين نظرة أخيرة، وأخذ يرسمهما بدقة تامة.

وبعد ذلك قال لرفيقه: هلمَّ بنا لنعود إلى قبتنا.

قال ديك: فلنسرع لأن بعض العبيد يتأهبون لعبور النهر، والإتيان إلى

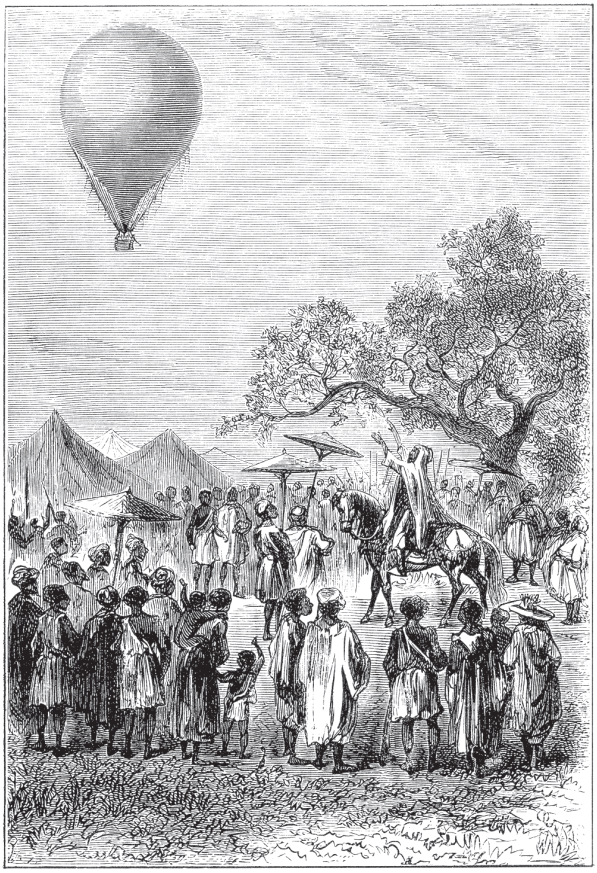
هذا المقر.

قال العلَّامة: لا يهمنا الآن شيء، إذا دامت الريح برهةً دفعتنا ذات الشمال، ونصل إلى غندوكورو ونعاين أبناء الأوطان.

وما مضت عشر دقائق إلَّا خفقت المنصورة بصعودها إلى الأعالي، ثم نشر فرغوسن الراية الإنكليزية في تلك البطاح دلالةً على فوزه بالنجاح.

الفصل السابع عشر

في الجبل المرتجف وأقوام نيام وما كان من أحاديث العرب عن تلك البلاد



فإذ شاهد ديك رفيقه العلَّامة ناظرًا إلى البوصلة سأله قائلا: وما هو اتجاهنا؟

قال العلَّامة: إننا نسير إلى جهة شمال الشمالي الغربي.

قال ديك: ويلاه؛ إن هذه الجهة ليست الشمالية!

قال العلَّامة كلَّا، وأظن أنه يعسر علينا جدا الوصول إلى غندكورو، وذلك مما يكدرني، غير أننا على كل الأحوال، قد وصلنا حبل اكتشافات الجهة الشرقية بالشمالية، فعليه لا يليق بنا الأسف.

وأخذت المنصورة تبتعد رويدًا رويدًا عن النيل.

ولاحت من العلَّامة التفاتة إلى درجة العرض التي امتنع على أعظم السواح قطعها، وقال: هاك تلك القبائل العاصية التي عُنِيَ عنها باتريك ودارنو

وميامي والشاب لِجان، الذين تركوا لنا أحسن الفوائد المتعلّقة بالنيل الأعلى.

قال ديك: والحالة هذه قد أيَّدت اكتشافاتنا سابق تخمنات العلماء.

قال فرغوسن: أي نعم، قد أيَّدتها كثيرًا، فإن ينابيع البحر الأبيض مغمورة في بحيرة عظيمة كالبحر وكثيرًا ما نظمت الأشعار بشأنه فحاولت أن تؤصله من ينبوع سماوي، وقد دعاه القدماء باسم أوقيانوس، وقرب إلى ظنهم أنه جارٍ من الشمس بخط مستقيم، ولا شك أن مثل هذه التخيلات الشعرية تخسر شيئًا من رونقها، فعلينا أن نستقي من مياه الفوائد التي يأتينا بها العلم فننبذ ما نراه عريًا عن الصحة، ونستمسك بما فيه صحة الرأي.

قال يوسف: وهناك شلالات أيضًا.

قال فرغوسن: إنما هي شلالات مكدو في ثلاث درجات عرضًا، ولا شيء أدق من ذلك، وأتمنى لو كنا تمكنا من الرحيل فوق خط النيل.

قال الصياد: وكأني أرى عن بعدٍ رأس جبلٍ.

قال فرغوسن: هذا جبل لكويك المعروف عند العرب بالجبل المرتجف، وقد طاف أندريا دبنو حول هذه البلاد وهو منتحل لنفسه اسم «لطيف أفندي» أما الأقوام الساكنون بالقرب من النيل فهم أعداء بعضهم لبعضٍ، ولا ينفكون من القتال والمصارعة، وعليه فلابدَّ من أن يكون دبنو المذكور قد عانى من المشقات والمصاعب والمحذورات معظمها.

وقد حملت الريح على أجنحتها منصورة المسافرين إلى الجهة الشمالية الغربية، وجدَّ العلَّامة في أن يجد طبقة هواء منحرفة عن الاتجاه إلى جبل لكيك للتنحي عنه.

فقال العلَّامة: خليليَّ!... مذ هذه الساعة تبدأ رحلتنا الإفريقية، لأننا فيما سبق لم نتبع إلّا آثار من سلفنا، وهانحن أولاء الآن نرمي بأنفسنا في بحر هذه المفاوز المجهولة منا، فقولا لي هل تخمد همتكما ويبرد نشاطكما؟

فصاح الرفيقان بصوتٍ واحد قائلين: كلَّا، ثم كلَّا.

فقال فرغوسن: هيا بنا، هيا يا خليليَّ، ولنَسِرْ بحفظ المولى.

ولما دخلت الساعة العاشرة، وقد مرَّ إذ ذاك المسافرون فوق وهداتٍ وأحراش وقرى متفرقة وصلوا أخيرًا إلى جانب الجبل المرتجف، ففاتوه ومضوا بغير عاقة.

وفي ذلك النهار المخلد الذكر؛ أي في 23 نيسان، مرُّوا ببرهة خمس عشرة ساعة مسافة ثلاثمائة وخمسة عشر ميلًا جغرافيًا، وذلك بقوة ريحٍ شديدة.

ولكنك كنت تراهم في هذه المدة الأخيرة ملتحفين بشعار كآبةٍ لا سبب ظاهرًا لها، وقد ملك السكوت المطلق في أفئدتهم، فهل يا ترى كان فرغوسن غارقًا في بحر التأملات من جري اكتشافاته، أم كان رفيقاه حاملين على عاتقهما عبء الاهتمام بالرحلة العتيدة وسط البلاد القفرة والمفاوز الشاسعة، وهم إذ ذاك لا يعرفون لها بدءًا ولا نهاية، فلا شك في أن جميع هذه الأمور تخللت أفكار المسافرين، وقد خالجها التذكر

بالأوطان والخلان.

أما يوسف فما لاحت على محياه إلَّا لوائح عدم الاكتراث بشيء، وإذا خطر له على بال ذكر هوى الأوطان قد قال: لم تغب عني الأوطان، بل أنا غبت عنها. وهذه علة غربتي، ومع ذلك قد نظر إلى سكوت رفيقيه بعين الحرمة والاعتبار.

فعند الساعة العاشرة مساء ألقت المركبة مرساتها في جوار الجبل المرتجف، وتناولوا العشاء بالهناء، ثم رقدوا بحراسة كل منهم.

وفي الغد طرقت آذانهم الأفكار الصافية، وكان الجو رائقًا والريح تتلاعب في تلك الآفاق، ومهبها من الجهة الموافقة، فقام يوسف وقدم لرفيقيه فطورًا لذيذًا، فانتعشت منهم الأكباد، وتحوَّلت أخلاقهم من دار العبوس إلى دار الإيناس.

وأما البلاد التي جابوها في ذلك اليوم فهي شاسعة جدًا، وتخومها من جبال القمر إلى جبال درفور، وتلك المسافة تكاد تبلغ مسافة أوربا من أولها إلى آخرها.

فقال العلَّامة: إننا مارون الآن بالبلاد التي زعم عنها أنها مملكة أزوغا، وارتأى بعض أهل الجغرافية أن بحيرة عظيمة ممتدة في أواسطها فسنعلم إن كان في هذا الأمر بعض الحقيقة.

قال ديك: وكيف أمكن افتراض ذلك الرأي؟

قال فرغوسن: إنهم افترضوه من حكايات العرب الذين يكثرون من

الأخبار والأحاديث؛ فإن بعض المسافرين عند وصولهم إلى كازه أو إلى البحيرات العظيمة تلاقوا بعبيدٍ من الأقاليم المتوسطة، فاستعملوا منهم عن بلادهم، ثم شحنوا رزمة أوراق بتلك الأخبار، واستنتجوا منها أقيسة، وذهبوا فيها مذاهب شتى، وهي في جوهرها لا تخلو من بعض الصحة والحقيقة، وقد رأيت الآن أن حكاياتهم عن منبع النيل وقعت موقع الحقيقة، وإن لم تؤخذ قبلًا على مجمل الصدق.

قال ديك: في الحق تكلمت.

فاستتلى فرغوسن كلامه، وقال: إنه بواسطة هذه الأوراق والأخبار سطرت الرسوم الجغرافية، ولهذا سأسير في طريقي طبقًا لهذه الرسوم، وأصلحها إذا مست الحاجة.

قال يوسف: يا مولاي!... وهل هذه البلاد مسكونة بالأهالي.

قال العلَّامة: لا ريب في أنها مسكونة، ولكن بئس السكنى، وجميع هؤلاء الأقوام يعرفون بأقوام نيام نيام، وما وضع هذا الاسم إلَّا مماثلة للمضغ والعلك.

قال يوسف: بالتمام والكمال نيام نيام نيام نيام؛ فكأني ضامغ.

قال العلَّامة: لو كنت سببًا لهذا اللقب ما طابت لديك.

قال يوسف: فسر لي كلامك يا سيدي.

قال فرغوسن: اعلم أن هؤلاء الأقوام معدودون أغوالًا يأكلون لحم بني آدم.

قال يوسف: وهل ذا أمر لا يشوبه ريب؟

قال العلَّامة: ولا ريب فيه، من الناس من قال عنهم إن لهم أذنابًا كالدواب والبهائم ولكن تحقق عندهم فيما بعد أن هذه الأذناب خاصة بجلود بعض الحيوانات التي كانوا يتردَّوْن بها.

قال يوسف: وما أحلى من الذنب!... فإنه يصلح لطرد الناموس والبعوض.

قال فرغوسن: ربما يصلح لذلك، ولكن ينبغي أن ندخل هذه الحكايات في طي الخرافات مع ما نسبه أحد السواح من رؤوس الكلاب إلى بعض الأقوام الإفريقيين.

قال يوسف: ولا أحلى من رؤوس الكلاب أيضًا، لأنها تصلح للعواء حتى، وتنفع لأكل بني البشر.

قال فرغوسن: إن الأمر المثبوتة صحته، والموجِب كل أسفٍ إنما هو أن هؤلاء الأقوام متولعون جدًا في تلقف بشرة الإنسان وطالبونها بغرامٍ عظيم.

قال يوسف: أود ألَّا يغرموا في جسدي.

قال الصياد: وهذا حسبك يا يوسف.

قال يوسف: إذا طرأ علينا يوم قحطٍ وجوع ومست الحاجة إلى أن أؤكل فأرغب في أن تنتفع بي أنت وسيدي، ولكن إذا وقعت في أيدي هؤلاء البرابرة وقضي عليَّ بأن أكون لهم غذاء لا بد من أموت خزيًا وكمدًا.

قال الصياد: حياك الله يا يوسف؛ فقد تم الاتفاق بيننا، وعوَّلنا على أن نعتمد عليك وقت الحاجة.

قال يوسف: سادتي أنا بالخدمة.

قال العلَّامة: إنه يتفوه بهذا الكلام لنعتني به ونقيته قوتًا جيدًا فيسمن ويضخم.

قال يوسف: إن ذا رأي محتمل استحوذ عليه حب الذات المفرط لأن الإنسان حيوان.

ولما كان بعد الظهر تظللت السماء بضباب سخن يتصاعد من الأرض، ويمنع المسافرين عن تمييز الأشياء في طريقهم، قد عوَّل العلَّامة على أن يرمي المرساة الساعة الخامسة خشية أن تصدم المركبة رأس صخرة وهم لا يشعرون بذلك.

فقضوا ليلتهم حيثما كانوا، ولم يطرأ عليهم طارق غير أن مثل ذلك الظلام أوجب عليهم مضاعفة السهر والاحتراز.

وعند الصباح قد هبت الريح بشدة، وصار الهواء يدخل متعمقًا في أسفل القبة، ويحرك الآلة التي كانت تدخل فيها أنابيب امتداد الغاز، فمنعوا اضطرابها بحبال شدَّت بها، وقد تمم يوسف هذا الأمر بإحكام وفطنة.

وتمعن يوسف في فوهة القبة الهوائية، وحقق أنها مسدودة سدًّا محكمًا.

فقال العلَّامة: لنا فائدة من جهتين بسدادة الفوهة؛ فمن الجهة الأولى لا يتلف الغاز الثمين، ومن الجهة الثانية لا نترك وراءنا ذنبًا قابل الاشتعال،

لأنه يخشى عليه أخيرًا أن يلتهب ويحرق القبة.

قال يوسف: ولا أردأ من هذا حادث السوء في رحلتنا.

قال ديك: وهل إذا لا سمح الله بلينا به تهوَّرنا إلى الأرض بسرعة؟

قال العلَّامة: كلَّا؛ فلا نتهوَّر بسرعةٍ بل يأخذ الغاز في الاشتعال رويدًا رويدًا، وننزل قليلًا فقليلًا، وهذا ما جرى للسيدة الفرنسية بلنشار وهي راكبة مركبة هوائية، فقد اشتعلت قبتها وهي ترمي بالأسهام النارية من مركبتها، لكنها لم تسقط حالًا، ولو لم تصدم في نزولها مدخنة قلبت قاربها ما كان أصابها ما أصابها من السوء.

قال الصياد: أؤمّل ألَّا ينوبنا مثل هذا العارض المشؤوم لأني إلى الآن لم أر خطرًا في رحلتنا، ولا أرى سببًا يصدنا عن الوصول إلى ربنا.

قال العلَّامة: ولا أنا أيضًا، واعلم يا صاح أن العوارض التي طرأت على راكبي المركبات كانت دائمًا مسببة عن قلة فطنتهم، أو من قصور بدا منهم في بناء القبة والآلة ومع هذا كله فلم نسمع عن حوادث سببت الموت لراكبي المركبات إلَّا ما قل ويكاد يبلغ الواحد في الألف، ولكن في العموم ليست الأخطار إلَّا في الارتفاع فوق الأرض والنزول إليها، ولذلك ينبغي لنا أن نكون على حرص وحذر، وألَّا يبدو منا قصور وتوان في الاعتناء الكامل.

قال يوسف: هذا وقت الغداء يا سادتي، فنستكفي حاليًا في أن نتناول لحمًا قديدًا، وبعده نشرب القهوة إلى أن يتمكن ديك من أن يصطاد لنا بعض الوحوش ذات اللحوم اللذيذة.

الفصل الثامن عشر

في الآنية السماوية والأشجار السامية الارتفاع والمذبحة الشنيعة التي تخللتها الوسائط الإلهية



ثم اشتدت الريح وهبت من جهاتٍ مختلفة، ولم يعرف لها اتجاه، ولذا كانت المنصورة تثب وثبات شديدة مديدة تارة نحو الشمال، وطورًا نحو الجنوب، ولم يستطع فرغوسن أن يصادف مهبًا ثابتًا.

فلما نظر ديك إلى الإبرة المغناطيسية ورآها تضطرب وتتذبذب كثيرًا، قال: إننا نسير بسرعة هائلة، لكننا نتقدم قليلًا إلى ما قدام.

فقال العلَّامة: إن المنصورة تسير أقله مسافة ثلاثين ميلًا في الساعة، وعليك يا ديك أن تميل بعينك إلى أسفل، فترى كيف تتوارى الحقول عن أبصارك، وانظر إلى هذا الغاب أيضًا، فكأنه مسرع إلى ملاقاتنا.

قال الصياد: أما ترى أن الفَدْفَد قد قام مقام الغاب؟... فما مضت برهة إلَّا تكلم يوسف وقال: هاك القرية قد قامت مقام الفدفد، فتأملا في السودان كيف أن الدهشة استولت على محياهم؛ يا ما أبلدهم!

قال العلَّامة: ومن الأمور الطبيعية أن تستولي عليهم البهتة والدهشة؛ فإن الفلاحين الفرنسيين عند مشاهدتهم القباب الطيارة في المرة الأولى ظنوا أنها وحوش جوية، فأطلقوا عليها الرصاص، ولهذا لا عجب إذا حدقت السودان أبصارهم متفرجين على قبتنا.

وكانت المنصورة مارة فوق قرية، وهي لا تعلوها أكثر من مائة قدم.

فقال يوسف: طرق ذهني أن ألقي لهؤلاء الأنام المتفرجين آنية فارغة، إنْ إذنت لي يا سيدي، فإذا وصلت إلى الأرض سالمة من كل غائلة عبدوها كإله وإذا تحطمت كسرًا اتخذوا تلك الكسر كلمات سحرية.

فما فاه بهذا الكلام إلَّا ورمى بالآنية فتكسرت آرابًا، أما السودان فاضطربوا وضجوا في الصراخ، ثم طفقوا يأوون إلى كهوفهم خوفا من الغوايل الجوية.

وبعد أن ساروا برهة قال ديك: ها هي ذي شجرة غريبة الشكل لأنها من جنسٍ في أعلاها وجنسٍ آخر في أسفلها.

قال يوسف: ويحك يا ديك!... إن الأشجار في هذه البلاد ينبت بعضها فوق بعض.

قال العلَّامة: إنما حقيقة الأمر أن جزع شجرة تين عليه تراب نباتي، فهبت الريح يومًا ودفعت بزرة نخلٍ على ذلك التراب فنمت النخلة كأنها زرعت في حقله.

قال يوسف: لعمري؛ إنها لصناعة جميلة، سأهتم بحوله تعالي في أن

أجريها بحدائق لندرة؛ إن ذلك مما يطرب الخاطر ويعجب الناظر، وهي وسيلة ظريفة لتكثير الأشجار ذات الأثمار لإرقاء الحدائق إلى الجو، ولابدَّ أن يسر بهذه الصنيعة أصحاب العقارات والأملاك الصغيرة.

ثم اضطرت المنصورة إلى أن تعلو الأرض كثيرًا لتمرَّ فوق أشجار باسقة يبلغ علوها نحو ثلاثمائة قدم ونيف، وهي من جنس البان الطويل العمر.

قال ديك: وما أحلى هذه الأشجار وما أجملها!... لعمري؛ لم أر في حياتي مشهدًا بهيًا كمشهد هذا الحرش ذي الأشجار القديمة الأيام، وأرجوك يا فرغوسن أن تتمعن فيه قليلًا.

قال فرغوسن: في الحقيقة إن أشجار هذا الغاب من أعجب العجائب، ولكن الأعجب من ذلك هو أنه في البلاد الأميركانية توجد أشجار أشمخ وأبسق منها.

قال ديك: واعجباه!... وهل من شجر أسمى علوًا وارتفاعًا من هذه؟!

قال العلَّامة: لا شك في ذلك، وتلك الأشجار ندعوها باسم مموث تريس؛ أي أشجار مموث، فقد وجد في بلاد كاليفورنيا أرزة بلغ علوها أربعمائة وخمسون قدمًا، وهذا العلو يفوق برج لندرة «وهو من الأبراج المشهورة في العلو» حتى وأعظم من أهرام مصر، وأما قاعدتها فبلغت دائرتها مائة وعشرين قدمًا، وقد استدل من الطبقات الظاهرة فيها أن عمرها ينوف على الأربعة آلاف سنة.

قال يوسف: والحالة هذه؛ فلا عجب في علوها وشموخها، لأن من عاش كثيرًا طال كثيرًا، والشجرة التي عاشت مدة أربعة آلاف سنة فمن الضرورة

أن يوافق علوها طول عمرها.

ولكن ما تمت حكاية العلَّامة وجواب يوسف إلّا توارى الغاب عن أنظارهم، ووصلوا فوق أكواخ مبنية حول ساحة مستديرة، ووسط تلك الساحة شجرة وحيدة، فلما نظر يوسف إليها قال: ويلاه؛ إذا كانت هذه الشجرة تأتي بمثل تلك الأثمار منذ أربعة آلاف سنة فلا أحييها بالسلام ولا أُسَرُّ برؤيتها.

قال هذا وأومأ إلى جميزةٍ سامية العلو، وقد غطي جزعها بكومة من عظام بني آدم، وقد أعنى يوسف بالأثمار عن رؤوس مقطوعة حديثًا؛ كانت معلّقة على خناجر مشكوكة في قشرة الشجرة.

قال العلَّامة: يا لها من حرب شنيعة تشبه حرب البسوس؛ فإن الهنود في مثل هذه الحروب يسلخون رأس الأسير الذي يقع تحت غائلة القتل، وأما الإفريقيون فيقطعون رأسه تمامًا.

قال يوسف: فإن لكل فريق عادته.

فما مضى برهةٌ إلَّا تركوا وراءهم تلك القرية ذات الرؤوس المخضبة بالدماء، غير أنهم وصلوا إلى قرية أخرى شاهدوا فيها منظرًا يفتت الأكباد ويمزقها تحسرًا وتأسفًا؛ إذ بصروا بجثث بعض القتلى المأكولة إلى نصفها، وعظامًا مجردة عن اللحم، وأعضاء أجسام بشرية مبعثرة هنا وهناك، وتجذب رائحتها الضباع وأبناء آوى ليتلقفوا منها ما بقي من اللحوم.

قال العلَّامة: لا ريب في أن هذه أجسام المجرمين، وفي بلاد الحبشة أيضًا

يعاقب الآثمة بعقاب ليس أقلَّ شناعة ورداءةً؛ إذ يلقونهم عرضة للوحوش الكاسرة فبعد أن خنقتهم هذه بنهشة من نهشاتها المميتة تأخذ في أن تتبطقهم على خاطرها وهوائها.

قال الصياد: ليس هذا العقاب أمرَّ من المشنقة، بل إنما هو أشنع وأقبح كثيرًا.

قال العلَّامة: إن عقاب المذنبين في بلاد إفريقية الجنوبية هو أنهم يجعلون في أكواخهم مع ماشيتهم، وأحيانًا مع عائلتهم ثم تضرم فيها النيران فيحترق الجميع معًا، وأنا أسمي هذا العقاب توحشًا، لكني أقرُّ معترفًا مع صاحبي ديك أن المشنقة عقاب بربري أيضًا، وإن كان أقل قساوة وشناعة من ذاك.

أما يوسف فتوضح الجولة، فلمح بصره بعض شرذماتٍ من الطيور الكاسرة تحوم في الأفق.

فنظر إليها ديك بالمنظرة، وقال: إنما هي نسور جميلة وسرعة طيرانها تضاهي سرعة مسيرنا الجوي.

قال العلَّامة: وقانا الله من صدمة تصدم بها هذه الطيور قبتنا؛ فإني أخشاها أكثر من الوحوش الضاريات والأقوام المتوحشين.

قال ديك: ولم هذه المخافة؟... ألا تعلم أننا نبدد شملها بالرصاص؟

قال العلَّامة: أحبُّ إلي ألّا أحتاج إلى حذقك هذه الدفعة، لأن قماش قبتنا ليس من حديد ليقاوم نقرة من نقار منقارها، غير أني أراها قد اختشت

قبتنا ولم تجذبها إلينا غرابة منصورتنا.

قال يوسف: ولكن طرق ذهني فكرٌ يا خليليَّ؛ فإن الأفكار تداهمني اليوم بالعشرات والمئات وهو لو أمكنَّا أن نلقط زمرةً من النسور الحية ونربطها بمركبتنا؛ لقد جرتنا في الجو على أجمل منوال.

قال العلَّامة: وقد عرضت هذه الطريقة بجدٍ، إنما الذي يمنع نفوذ الأمر هو الخلق الجموح المنفطرة عليه تلك الطيور.

قال يوسف: وهلَّا يمكن ترويضها وتهذيبها؟... وعوضًا عن اللجام تجعل عصابة على عيونها فإذا حجبت عين اليمين سارت النسور ذات الشمال والعكس بالعكس، وإذا حجبت العينان وقفت بغتةً الطيور.

قال العلَّامة: ائذن لي يا حبيبي أن أفضل ريحًا موافقة على نسورك المقطورة.

قال يوسف: الإذن معك يا سيدي، لكني ما زلت ضابطًا ما رأيته من الرأي.

قال العلَّامة: لا بأس في ذلك.

وكان الظهر، والمنصورة أخذت في سير الهوينا في تلك البطاح، وعلى الفور طرق آذان المسافرين ضجيج وعرير وصفير، فتطلعوا من مركبتهم إلى أسفل وإِذْ تراءى لأعينهم ما حملهم على التأسف والكدر وفجع أفئدتهم غمًا وكربًا وهو مشهد قبيلتين متهوشتين في معمعة القتال، يبارز بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا بمعاندةٍ وضغن شديد، وبينما هم يقاتلون

ويتنابحون تنابح الكلاب إذ مرت المنصورة فوقهم ولم يشاهدوها، وكانوا نحو ثلاثمائة نفر محتبكين في حومة المعركة، وكثير منهم خائض في دماء قتلاهم، ومنظرهم مما تمجه الأعين وتأنف منه القلوب.

فعندما بصروا بالقبة الطيارة وقفوا لحظةً وازدادوا ضجيجًا وبعاقًا، وجعلوا يرمونها بالسهام، فوصلت منها واحدة بالقرب منها وتمكن يوسف من إمساكها بيده.

فقال حينئذٍ فرغوسن: فلنرتفع إلى الأعالي لئلا يصيبنا سهم، ولا نكوننَّ قليلي الفطنة، فإنه لا يجوز لنا أن نستقر في هذه الدرجة، فأخذت المنصورة بالارتفاع، وما زال الذبح والبراز جاريين على قدم وساق، فنفدت النبال وتكسرت الأنصال وتحطمت السمر الطوال، واحمرَّ بساط الأرض من هدر الدماء في ذلك القتال، وكلما تجندل عدو إلى الحضيض قتله خصمه بضربةٍ فقطع رأسه للحال، وقد تداخلت النساء في تلك المعمعة الهائلة، فكنَّ يتسابقن على جمع الرؤوس السابحة في الدماء المتفجرة، ويذهبن بها إلى آخر ساحة القتال، وكثيرًا ما تصارعن للحظوى بغنائم الظفر تلك، الكريهة المنظر.

فقال ديك، وقد شقَّ قلبه سهام الكدر والنفور مما شاهدوه في تلك الملحمة الهائلة: ويلاه؛ ما أفجع هذا المشهد وما أسوأه!

قال يوسف: إن المتحاربين أناس ذوو صورةٍ قبيحة، ولكن لو لبسوا الثياب العسكرية لكانوا كسائر الجنود في الحروب المدنية.

فقال ديك: أرغب جدًا في أن أتوسط بين هؤلاء المتحاربين في هذه المعركة

الهائلة.

قال هذا ومسك سلاحه متأهبًا لإطلاق الرصاص.

قال العلَّامة حذارِ حذارِ من هذا الصنيع؛ فإنه لا يأتينا إلَّا بالأذية والضرر، فلنهتم بما يعنينا، وقل لي أيضًا هل تعرف مَنْ مِنَ الطائفين هي المذنبة لتتوسط بينهما وتستنصر لإحداهنَّ. فالخليق بنا أن نفرَّ من هذا المنظر البشع الذي تنفر منه القلوب، فلو أشرف رؤساء الجنود في الحروب على ساحات الحرب وتأملوا ما يجري فيها من سفك الدماء لذهب ذلك المشهد برغبتهم في المحاربة وجني الفتوحات.

وكان أحد رؤساء الطائفتين يمتاز بطول القامة وعرض الجسم؛ فإنه كان يخترق صفوف العدو ويضرب بالفأس ويشك الرمح، ثم ألقى لحظةً رمحه بعيدًا عنه، وكان مغمسًا في الدم، ورمى بنفسه على أحد الجرحى، ثم جذم ذراعه بضربةٍ واحدة من الفأس، ومسكه بيده رافعًا إياه إلى فمه وجعل يعضه بتواتر.

قال ديك: ويلاه ما هذا الوحش المفترس؟... لقد عيل اصطباري.

قال هذا، وأطلق عليه رصاصة فأصابته في جبهته وصرعته إلى الأرض مستلقيًا على ظهره، فعند سقوطه استولت الدهشة والرعب على قلوب أتباعه وارتاعوا من موت رئيسهم العجيب، وهاجت منهم الأفكار، أما أخصامهم فازدادوا شجاعة وحماسة، وعليه قد فرَّ نصف المتحاربين من حومة القتال.

فقال العلَّامة: هلموا بنا نرتقي إلى طبقةٍ أعلى لنجد ريحًا تدفعنا إلى مكان

بعيد عن مشهد هؤلاء البرابرة، لأنه قد بجن في قلبي حاسة الغم والكدر ولا عدت أطيق النظر إليه.

وبعد أن رحلوا برهة شاهدوا عن بعدٍ الطائفة المستظهرة قد انقضت على القتلى والجرحى انقضاض الجوارح، وجعلت تتنازع على لحومهم الساخنة لتأكلها بشراهةٍ وحرص.

فقال يوسف: أفٍ أفٍ؛ إن ذا لموجب الاستكراه، الفرارَ الفرارَ.

وأما المنصورة فشرعت في الارتفاع والامتداد، وتبعهم قوم من أولئك البرابرة المسوخ وهم يضجون في الصراخ والعرير، ولكن لما دفعتها الريح إلى الجنوب توارت عن المذبحة الهائلة ومآكلة اللحم البشري.

فكانت الأرض في تلك المحلات مختلفة الهيئة والمنظر، وتخططها مجاري المياه الكثيرة السائلة إلى الجهة الشرقية، ولابدَّ أنها تسكب مياهها في مصاب البحيرة «نُو» أو في نهر الغزلان الذي أتى عنه المسافر «لِجان» بفوائد غريبة الأشكال والألوان، ولما أمسى المساء ألقت المنصورة مرساتها في درجة 27° طولًا و 20 4ْ عرضًا شماليًا بعد أن قطعت مسافة 150 ميلًا.


Riou

الفصل التاسع عشر

في الغارة الليلية والصوت الصارخ وبذل الاجتهاد في نجاة المرسل

وكان ظلام الليل حالكًا لم يسنح للعلّامة فرغوسن أن يميز تلك البلاد ويعرف مركزه، ولما كان متعلّقًا بمركبته فوق شجرةٍ عالية فبالكاد تمكن من رمق أوراقها المتكاثفة في ذلك الظلام الدامس.

وقد توكل الحراسة بمدة الثلاث ساعات التي يليها نصف الليل، فقام ديك ليحرس مكانه، فحرصه فرغوسن على ألَّا يغفل في حراسته عن مراقبة ما يمكن أن يطرأ عليهم من الحوادث، وقال: خيل لي أني سمعت تغمغمًا ولغطًا تحتنا ولا أدري ما هو!

قال ديك: لربما سمعت أصوات بعض الوحوش الكاسرة.

قال العلَّامة: كلَّا؛ فإني اتخذته شيئًا آخر، وعلى كل حال؛ عليك أن توقظنا عندما يروعك أدنى شيء.

قال ديك: لا بد من ذلك.

وبعد أن أمال العلَّامة بأذنيه إلى أسفل، ولم يسمع شيئًا، ارتمى على فراشه وتدثر باللحاف ونام.

وكانت السماء مظللة بغيوم كثيفة، ولكن الريح في استكانةٍ وهدوءٍ، ولم تتذبذب قط المنصورة، وإن تكن معلقةً بمرساة واحدة.

فلبث ديك مناظرًا قصبة القبة وكان ساندًا ذراعه على المركبة ويتأمل أحيانًا بما حوله من السكوت العميق، وينظر تارةً إلى الأفق كمن يستفحص عن أمر وهو في اضطراب وقلق وحسب أنه يشاهد ضياء مبهمًا.

وفي لحظة ظنَّ أنه شاهد جليًا ضياء ساطعًا عن بعد نحو مائتي قدم لكنه كان كالبرق السريع؛ إذ توارى عن بصره ولم يبق له أثر.

فلم يكن ذلك الضياء إلَّا كتلك الإحساسات المضيئة التي تتراءى لأعين المتأملين في ظلمات الليل المحتبكة.

فسأل ديك في نفسه قائلًا: هل هذا هو صوت حيوان أم طير الليل أم هل هو صراخ ابن آدم.

وكاد ديك يوقظ رفيقيه لخشيته من خطب يلمُّ به وهو على تلك الحال لكنه قال في نفسه: إن كان هؤلاء رجالًا أو وحوشًا فهم غير قادرين على الوصول إلى قبتنا، ثم نظر إلى سلاحه وأخذ منظرة الليل وجعل يحدق بصره في الفضاء.

فخيل له أنه رأى تحت القبة خيالاتٍ تتسلق على الشجرة ثم أرسل بدر

الليل شعاعًا طفيفًا من بين سحابتين فتمكن ديك من مشاهدة بعض أشخاص متحركين ومائجين في الظلام.

فطرق حينئذٍ ذهنه تلك السعادين اللاتي صارعها العلَّامة وهو إذ ذاك مقيم وحده في المركبة ولمساعدته وضع يده على كتف العلَّامة.

فأستيقظ فرغوسن للحال وقبل أن يستفهم من رفيقه عن واقعة الحال قال له ديك: صه يا فرغوسن ولا تتكلم إلَّا بصوتٍ منخفض.

قال العلَّامة: وهل من حادث طرأ.

قال نعم فلنوقظنَّ يوسف.

فلما استفاق يوسف من الرقاد أخذ الصياد في التخبير عما تراءى له فقال يوسف قبح الله السعادين؛ فإنها تودُّ أن تقلقنا.

قال العلَّامة: وعلينا بأخذ الاحتياط اللازم.

قال ديك: إني أنزل مع يوسف إلى الشجرة بالسلم لفك المرساة.

قال العلَّامة: أما أنا في غضون ذلك سأعد الآلة لتتمكن من الصعود إلى العلاء بسرعة وخفة.

فقال يوسف. هلمَّ يا ديك ننزل.

فقال لهما العلَّامة: إياكما أن تستعملا السلاح إذا لم تحوجكما إلى ذلك الضرورة القصوى، لأن لا فائدة لنا أن يدري بنا أحد في هذه النواحي.

فأومأ ديك ويوسف إلى العلَّامة بالإشارة جوابًا عن سؤاله، ثم نزلا إلى الشجرة وارتكزا على أغصان كبيرة كانت المرساة متعلّقة بإحداهنَّ.

ثم وقفا لحظة ناصتين فسمع يوسف حكًّا في قشر الشجرة.

فمسك بيد رفيقه، وقال: أنصت بأذنيك واسمع.

قال: إني سامع، وإخال الصوت يقرب منا.

قال يوسف: عسى أن يكون ما سمعته صفير حية.

قال: كلَّا لأنه كان يشبه صوتًا بشريًا.

قال يوسف: أحبُّ إلي أن يكونوا أقوامًا برابرة من أن يكونوا أفاعي مسمة؛ فإني لا أطيقها.

ثم مضت برهة وقال ديك: إن الضجة تزداد رويدًا رويدًا.

قال يوسف: نعم؛ فإن الآتي إلينا يتسلق ويصعد.

قال ديك: أنت قم في حراسة هذه الجهة وأنا أتوكل حراسة الأخرى.

فكانا كلاهما منفردين على ذروة غصنٍ كبير نابت بخط مستقيم في وسط شجرة البوباب تلك، التي تضاهي حرشا بكبرها واتساعها فزاد كثيف الأوراق ظلامًا على كثيف الظلام، ولكن قد دنا يوسف من رفيقه وأومأ إليه أن ينظر إلى ناحية الشجرة السفلى، وقال: إنهم عبيد سود.

ثم سمع الرفيقان كلامًا تداولته العبيد من أسفل.

فرفع يوسف له سلاحه مستعدًا لإيراث النار.

فقال له ديك: مهلًا رويدًا يا يوسف.

وفي الحقيقة كان بعض العبيد السود قد تسلقوا الشجرة وهم هائجون ومائجون، وكانوا ينسربون على الأغصان كالأفاعي، وقد تحقق دنوهم مما أفاحه أجسادهم من الروائح الكريهة لكونها ممزوجة بالشحم المنتن.

ثم تراءى لأبصار ديك ويوسف رأسان وذلك بمسارات الغصن الذي يقيمان هما عليه.

فقال ديك: هيا يا يوسف أطلق النار.

فأطلقا الرصاص معًا، وسمع لطلقتيهما دويٌّ أشبه بقصيف الرعد ثم خمد الدوي ما بين أصوات الاكتئاب، وعقب مرور دقيقة من الزمن غابت تلك الشرذمة السوداء.

وأما الذي ألقى أصحابنا الثلاثة في بحر القلق والحيرة فهو أنهم سمعوا صوتًا تخلل ذلك الضجيج ولم يكن يخطر ببالهم أنهم يسمعونه وظنوه مستحيلًا، وهو صوت بشري نطق الكلمات الآتية باللّغة الفرنسية بوضوح وجلاء وهي: !A moi !A moi !A moi إليَّ إليَّ.

فانذهل ديك ويوسف عن هذا الصوت العجيب وعادا مسرعين إلى المركبة.

قال لهما العلَّامة: أسمعتما!

قال ديك: سمعنا الصوت العجيب الصارخ إليَّ إليَّ.

قال العلَّامة: عساه صوت رجل فرنسي رماه التعس في أيدي هؤلاء البرابرة.

قال ديك: ربما هو سائح فرنسي.

قال يوسف: أو أحد المرسلين.

فقال الصياد: واهًا على حظه؛ فإنهم يقتلونه ويذيقونه عذاب الشهداء الأليم.

فقال العلَّامة وقد خالج صدره شعائر الاضطراب والتأسف: لا شكَّ في ذلك، وهو أن أحد الفرنسيس قد أضحى فريسة لتوحش هؤلاء القوم المكروه، ولكن لا نرحل من هنا إلَّا بعد أن نكون بذلنا جدنا وجهدنا لننجيه من تهلكته ولا ريب أنه لسماعه طلقة البارود يكون قد خطر له في باله أن يدًا غريبة قد أتت لمعونته، ووساطة عجيبة من العناية الإلهية أدركته فلا نخيبنَّ إذًا أمله يا خليليَّ؛ كيف رأيكما؟

قال ديك: إن ذا الرأي رأينا يا فرغوسن، وهانحن أولاء بين يديك؛ فمرنا بما تشاء.

قال فرغوسن: علينا أن نهيئ مذ الآن شغلنا، وغدا عند بزوغ الفجر نجدُّ في انتشاله من أيدي قاتليه.

فسأل ديك رفيقه قائلًا: ولكن كيف نبدد شمل البرابرة السودان.

قال العلَّامة: تحقق لديَّ الآن أنهم لا يعرفون الأسلحة النارية لأنهم خافوا منها خوفًا عظيمًا، وذهبوا رائعين مرتعدي الفرائص، فيلزم إذا أن نغتنم فرصة اضطرابهم بهذه الواسطة، ولكن لا نبدأ في أمرٍ إلَّا عند الصباح

حتى نرى هل يوافقنا المكان.

قال يوسف: لا بد من أن يكون هذا المسكين قريبًا منا لأنه... فما فاه باللفظة الأخيرة إلَّا أعاد الصارخ صوته قائلا: إليَّ إليَّ.

فقال يوسف وهو مختلج الفؤاد: تعسًا لهؤلاء البرابرة وبخٍّ لفعالهم؛ فإنهم لا يزالون يعذبونه وعساهم أن يقتلوه هذه الليلة.

فمسك ديك يد العلَّامة وقال له: أسمعت ما قاله يوسف عساهم أن يقتلوه هذه الليلة.

قال فرغوسن: إن ظنكما بعيد عن الحقيقة، لأن هؤلاء الأقوام المتوحشين لا يقتلون أسراهم إلَّا في النهار، ويقتضي إنفاذ فعالهم الرديئة سطوع أشعة الشمس المضيئة.

فقال ديك: وهل ترى لا يوافق أن أنتهز فرصة الظلام وأنزل منسرقًا إليه وأنتشله من غائلته ثم آتي به إلى المركبة؟

فقال يوسف: سيدي وأنا أذهب برفقتك.

فقال فرغوسن: مكانكما يا خليليَّ، رويدًا رويدًا؛ فإنَّ قصدكما هذا هو برهان واضح على خلوص طويتكما وشجاعتكما، لكنكما ربما تضران بنا جميعًا، وعوضًا عن أن توليا ذلك المبتئس حظًا سعيدًا فإنكما تجعلان نصيبه التعس والويل.

قال ديك: وما سبب ذلك؟... فإن هؤلاء البرابرة ذهبوا متخوشين مرتعبين، ولا عادوا يرجعون إلى هذا المكان.

قال العلَّامة: أتوسل إليك طالبًا أن تسمع لمقالي ولا تنقاد لشعائر حنيتك التي تحثك على بذل أقصى جهدك في خلاص المتعذب.

قال ديك: أوَّاه!... كيف يكون حال هذا المسكين المضطرب الفؤاد الذي لا يجيب أحد سؤاله ولا يأتيه معين ولا مجير، وربما ظنَّ أن قد خدعته حواسه وليس ما سمعه من صوت الطلقة إلَّا هباء منثورًا وأضغاث أحلام؟!

قال العلَّامة: فها؛ إنني أطمئن بالَه الآن.

ثم استوى قائمًا وسط المركبة ورفع صارخًا باللّغة الفرنسية، وقال: طمئن من روعك يا أيها الأسير المكتئب، وثق بثلاثة أصحاب يحرسونك.

فعَّرت البرابرة بأصواتهم الحادَّة وضجوًا صارخين، وهكذا منعوا الرفاق الثلاثة من أن يسمعوا جواب الأسير.

فقال ديك: واأسفاه عليه!... فإنهم يذبحونه، أو هم مستعدون لذبحه، وستذهب وساطتنا هدرًا ولا تكون نفعت إلّا لتعجيل ساعة قتله وشدة عذابه، فعلينا إذًا أن نشتغل الآن في أمر نجاته.

فقال العلَّامة: وكيف العمل، وما الحيل، وما الذي تظنه مناسبًا لنعمله فيما بين هذا الظلام الدامس؟!

قال يوسف: آه لو كانت تتبدد هذه الظلمات بنور ساطع!

قال العلَّامة: وما الذي تصنعه إذا تبدد الظلام واستنار هذا المكان؟!

قال الصياد: وحينئذٍ تسهل علينا الأمور؛ فإني أنزل حالًا إلى الأرض، وأبدد شمل هؤلاء الأنذال بضرب الرصاص وأفعل ما أشاء.

فقال العلَّامة: وأنت يا يوسف ما الذي تصنعه؟

قال يوسف: سيدي إني أسير في الطريق الأيمن وأتصرف تصرفًا خاليًا من الخطر، وهو أني أعلم الأسير المبتئس أن يهرب إلى صوبٍ معلوم.

قال فرغوسن: وكيف تعلمه ذلك؟

قال يوسف: أعلمه بواسطة هذا السهم الذي مسكته لما كان طائرًا في الجو؛ فإني أربط فيه ورقة وأصلها إليه، أو أستعمل واسطةً أخرى وهي أني أخاطبه بصوت مرتفع؛ إذ لا يفهم السودان لغتنا.

قال العلَّامة: إنَّ مقاصدكما صعبة النفوذ، ولا تصلح لنجاة الأسير المضنوك، لأنه كم يصعب عليه الفرار من أيدي معذبيه، وأما قصدك يا ديك فإنه ربما ينجح؛ إذ تلقي أسلحتنا النارية الرعب في قلوب البرابرة وتجعلهم يذهبون شذر مذر، ولكن إذا خاب مسعاك وحبط عملك فإنك تمسي في خطر مبين ونعود نضطر إلى الاهتمام بنجاة اثنين عوضًا عن الواحد؛ فالأوفق إذًا أن نهتم ونجد بدون أن نكون عرضة للخطر.

قال الصياد: عليك أن تهتم في الأمر حالًا.

قال يوسف: سيدي هل أنت قادر على أن تبدد هذه الظلمات؟

قال العلَّامة: إن ذا ليس بمستحيل.

قال يوسف: إذا تممت هذا الأمر دعوتك أول علماء عصرنا.

فسكت فرغوسن لحظة وخاض بحر الفكر مترويًا في أمر النجاة وكان رفيقاه محدقين به بعجب وقلقٍ؛ إذ جاشت أنفسهم من موقعهم الخارق العادة وما مضت برهة إلّا أخذ فرغوسن في التكلم، وقال: أنصتا لمقالي يا خليليَّ؛ فإني فكرت فكرًا وهو أنه لايزال عندنا نحو 36 رطلًا من الثقل حيث ما حملناه من الرمل باقٍ على حاله ولم نمسه قط فأظن أن هذا الإنسان مع شدة ضنكه وترضرضه تحت مطارق العذاب لا يزن أكثر من واحدٍ منا فيبقى إذا عندنا نحو 12 رطلًا يمكننا أن نلقيها لنرتقي بسرعةٍ إلى الأعالي.

قال ديك: وكيف يكون إجراء الأمر؟

قال العلَّامة: إنك تسلم معي أني إذا تمكنت من وضع الأسير في المركبة وألقيت عني ثقلًا يوازي زنته فلا يحدث خلل في موازنة القبة، ولكن إذا رغبت حينئذٍ في أن أرتقي بسرعةٍ إلى الجو لأفر هاربًا من هؤلاء المتوحشين فيلزمني أن ألتجئ إلى قوةٍ مضاعفة لقوة القصبة والحال إذا ألقيت ما بقي من الثقل في الوقت المعلوم فلا شك أنني أصعد بسرعة عجيبة.

قال ديك: إن الأمر بين لا شبهة فيه.

قال العلَّامة: نِعْمَ القولُ، ولكن هنا محذور، وهو أني عندما أريد النزول فيما بعد يلزمني أن أفقد كميةً من الغاز مقابلة لما أكون ألقيته من الثقل الزائد، والحال أن هذا الغاز ثمين جدًا، مع ذلك لا يسوغ لنا أن نأسف على فقده عندما تمس الحاجة لنجاة إنسان من الهلاك.

قال: في الحق تكلمت يا خليلي، ومن الواجب أن نبذل كل ما في وسعنا لنجاته.

قال العلَّامة: فلنبادر إذا إلى العمل وفي بدء الأمر اجعلا أكياس الرمل على طرف المركبة لكي نتمكن من إلقائها دفعة واحدة.

قال يوسف: وهذا الظلام الكثيف.

قال فرغوسن: إن هذا الظلام يستر استعدادنا وأهبتنا ولا يتبدد إلَّا عند نهاية شغلنا، وأما أنتما فكونا على حذر وضعا أسلحتكما بالقرب منكما؛ عسى أن تمس الحاجة لإضرام النار وعندنا هنا الطبنجة والبارودتان فجميعها ترمي سبع عشرة رصاصة نطلقها في برهة ربع دقيقة إذا شئنا ذلك، ولكن ربما لا نضطر إلى هذه الطريقة القصوى، فلنأخذ الآن بالعمل ألعلكما على حضر؟

قال يوسف: هانحن أولاء بين يديك، وقد وضعت الأكياس على طرف المركبة والسلاح بالجانب منهم.

قال العلَّامة: هيا تحرصا شديدًا؛ فإنَّ يوسف مفوَّض بإلقاء أكياس الرمل، وديك بنشل الأسير ووضعه في المركبة، ولكن لا يفعلن أحد منكما شيئًا قبل أن آمره به، وأنت يا يوسف اذهب الآن وحل المرساة، وارجع حالًا إلى المركبة.

فنزل يوسف متدليًا على الحبل وفعل ما أمره به سيده وعاد إلى مكانه في برهة وجيزة، فارتفعت حينئذٍ المنصورة في الهواء وكادت لا تتحرك.

فنظر فرغوسن إلى صندوق المزج وتأكد أن عنده كمية كافية من الغاز لكي يضرم القصبة عند الحاجة ولا يضطر إلى استعمال كرة بنزن الكهربائية، ثم رفع الأنبوبتين المتفرقتين عن بعضها وهما المستعملتان لحل الماء من عنصريه وبعده نبش من كيس السفر قطعتي فحم مبريتين وفي آخرهما رأس حاد فأحكمهما في طرف كل من الأنبوبتين.

فشخص رفيقاه متأملين فيما كان يصنعه دون أن يفهما غايته أما هو؛ أي العلَّامة فبعد أن قضى شغله استوى على قدميه في وسط المركبة ومسك في كل من يديه قطعة من الفحم وقرب رأسيهما إلى بعضهما.

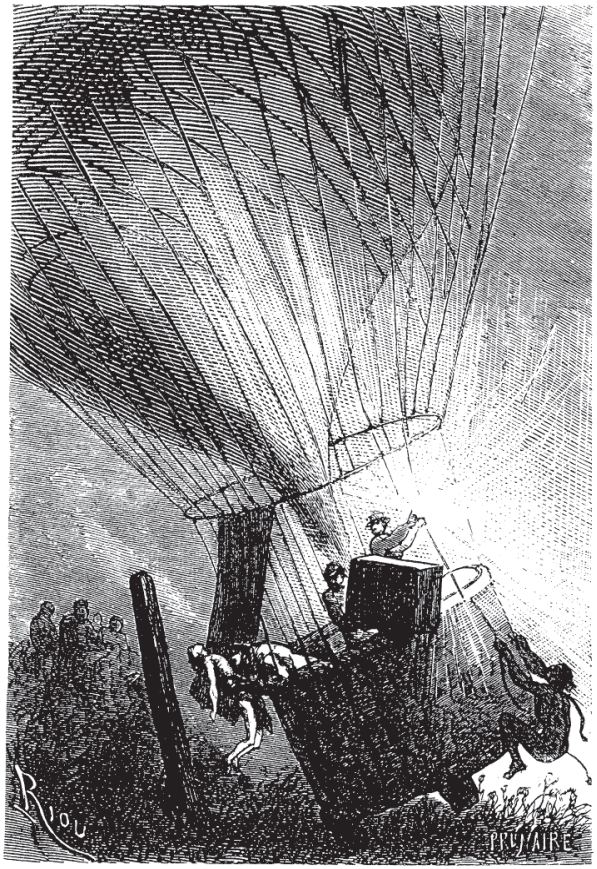
ففي الساعة والحال استنار المكان بضياء عجيب وكانت قطعتا الفحم كشعلة نارية فبدد ذلك النور الكهربائي ظلمات الليل الحالكة المحيقة بهم.

فقال يوسف: متعجبًا: يا هي يا سيدي!

فقال العلَّامة: مه صه يا يوسف لا تقل شيئًا!

الفصل العشرون

في المرسل العازاري وانتشالهِ من أيدي البرابرة وسيرتهِ وأوجاعهِ الأليمة
وحسن مداراة العلَّامة فرغوسن لهُ


RIOU
PRUNAIRE

فحوَّل فرغوسن توجيه شعاع النور الكهربائي من مكان إلى مكان ثم وجهه إلى مكان سمع فيه أصوات اضطراب وشغب وجعل رفيقاه يتفرسان في ذلك المكان.

فشاهدوا أن شجرة البوبات المتعلّقة بها المرساة مرتفعة بين حقلين؛ حقل سمسمٍ وحقل قصب سكر ويتخللهما نحو خمسين كوخًا متشتت المراكز ويطوفُ حول تلك الأكواخ رجال الطائفة الحالة في تلك البقعة.

ثم بصر الرفاق الثلاثة بخشبة مرتكزة على الحضيض نظير الساري، وذلك عن بعد نحو مائة قدم من قبتهم، وعند أسفل الخشبة شاب مضطجع يبلغ عمره نحو ثلاثين سنة ذو شعر أسود مستطيل وجسده عري نصفه عن الثياب نحيف مهزول العافية مخضب بالدماء مثخن بالجراح ورأسه مائل إلى صدره كما كان المسيح على الصليب.

وشاهدوا في قمة رأسه شعرًا محلوقًا مستديرًا أشبه الكهنة، فصاح يوسف وقال: إنما هو مرسل؛ هو كاهن ولا شك.

قال ديك: واأسفاه! واحسرتاه عليه!

قال العلَّامة سننجيه الآن بحوله تعالى يا صاح؛ كن مرتاح البال يا خليلي، فلما بصرت الطائفة السوداء بالقبة الهوائية الشبيهة بالنجم ذات الذنب، ولها ذنب ذو نور ساطع بلغت منهم الدهشة والانذهال أشد مبلغ وضجوا في صراخ الفزع والهلع، فرفع حينئذٍ الكاهن رأسه ولمع إذ ذاك نور الأمل على محياه، ثم مدَّ يداه نحو مخلصيه أنه يتوسل إليهم ضارعًا وهو كمن يرى منامًا.

قال فرغوسن: حمدًا وشكرًا لباري البرايا الذي نجاه من الهلاك أما نحن فلا يعسر علينا نشله لأن الرجال السود تكبلوا بسلاسل الخوف والرعشة، ومهدوا لنا سبيل الخلاص؛ فهل أنتما على حضر يا خليليَّ؟

قال ديك: نعم؛ قل ما تشاء!

قال فرغوسن: أطفئ القصبة يا يوسف!

فتمم يوسف أمر سيده ودفع النسيم الرخيم قبة المسافرين فوق الأسير فيما كانت القبة تأخذ في النزول مع تقلص الغاز، أما فرغوسن فكان يميل بنوره نحو أولئك الرهط، ويحركه قليلًا ليضيء لامعًا كوميض البرق، فاضطرب السودان اضطرابًا عظيمًا، وبادروا مسرعين إلى أكواخهم ومكث الأسير منفردًا وحده في محل عذابه، وقد أصاب فرغوسن قبلًا إذ وثق بما تلقيه المنصورة مع نورها الكهربائي من الرعشة في قلوب العبيد.

فلما اقتربت القبة من الأرض رجع بعض العبيد الأكثر جسارة وجراءة إلى أسيرهم؛ إذ دروا أنه عن قريب سينجو من أيديهم، وكانوا يصرخون صراخًا هائلًا فمسك ديك سلاحه ليرميهم بالرصاص فمنعهم فرغوسن عن ذلك.

وكان الكاهن جاثيًا على ركبتيه؛ إذ ليس له قوة أن يستوي قائمًا وهو ليس بمعلّق على الخشبة ولا مربوطًا بها؛ إذ لا حاجة إلى رباط لشدة ضعفه وهزله فلما وصلت المنصورة إلى الأرض وضع ديك سلاحه في مكانه ومسك الكاهن من تحت إبطيه رافعًا إياه إلى المركبة وألقى يوسف وقتئذٍ أكياس الرمل التي أشرنا إليها.

فكان فرغوسن يؤمل الارتقاء سريعًا وبخفة عجيبة، ولكن القبة خيبت منه الآمال إذ مكثت في الجو غير متحركة بعد أن ارتفعت نحو أربعة أو خمسة أقدام.

فلاحت على وجهه لوائح الفزع وصاح بصوت يخالجه الرعب وقال: ما الذي يمسكنا؟!

وللساعة هرول بعض العبيد وهم يصوتون بصراخ الوحوش الضاريات.

فمال يوسف برأسه إلى خارج المركبة وقال: سيدي إن أحد هؤلاء السود تعلّق بمركبتنا.

فقال فرغوسن: إياك يا ديك وصندوق الماء.

ففهم ديك مقصد العلَّامة وفي ساعته أخذ صندوقًا من صناديق الماء الذي

يبلغ وزنه نحو عشرين رطلًا ونيف ورماه حالًا إلى الأرض.

فلما خفت القبة فجأة قفزت قفزة هائلة إلى الجو، وبلغ علوها نحو ثلاثمائة قدم فشمل القوم السود الخزي والخجل؛ إذ فلت الأسير من بين أيديهم وانتشل ملتحفًا بشعاع نور ساطع.

ثم قفزت القبة قفزة أخرى فجائية وعلت عن الأرض نحو ألف قدم.

فقال ديك، وقد أوشك أن يفقد موازنة جسمه: وما هذا؟

قال فرغوسن: لا تخف يا ديك فقد رخى النذل الأسود قبتنا.

فمال يوسف للحال برأسه إلى أسفل وشاهد العبد الأسود ناشرًا ذراعيه وهو يدور في الهواء كدولابٍ ثم سقط على الأرض فتهشم.

فأبعد وقتئذٍ العلَّامة السلكين الكهربائيين وعاد الظلام إلى احتباكه وكانت الساعة إذ ذاك الواحدة بعد انتصاف الليل.

وفي تلك الدقيقة استفاق الفرنسي من غشيانه وفتح عينيه فقال له العلَّامة: أبشرك فإنك نجوت من الهلاك.

فأجاب المرسل باللّغة الإنكليزية وقال وهو يبتسم تبسم الاكتئاب: نعم إني قد نجوت من ميتةٍ شنيعة؛ فإني أشكر معروفكم يا إخوتي على صنيعكم وجميلكم ولكن أرى أن ساعتي قد اقتربت وأيامي فنيت فعن قريب أرحل من هذه الدنيا إلى الآخرة.

ثم عاد إلى سباته؛ إذ كان جسمه مضنوكًا إلى الغاية.

فقال ديك: وا أسفاه عليه!... فإنه في حالة النزاع.

قال العلَّامة: كلَّا يا ديك، ثم كلَّا، لكنه خائر القوى لشدة العياء والعذاب، فلنجعله تحت الخيمة ليرقد هناك.

فمدوا ذلك الجسم النحيف المهزول تحت الخيمة بلطافةٍ، وغطوه بلحفهم، وكان إذ ذاك مغمورًا بآثار العذاب والجراح المتثغبة بالدماء، وقد أثر فيها الحديد والنار تأثيرًا بليغًا، فغسل العلَّامة جراحه ثم غطاها بنسالٍ صنعه من خرقةٍ كتان، وكان حاذقًا في هذه الصنعة، ويداري المريض كطبيب ماهر، ثم أخذ قليلًا من الدواء المقوي من أجزائيته وسكب نقطًا منه على شفتي الكاهن.

فمسك المريض حينئذٍ بيد طبيبه دلالةً على الممنونية والحظوى وبالكاد تلفظ بكلام الشكران؛ إذ قال له: أشكر معروفك ... أيها الفاضل ...

ثم رأى فرغوسن موافقًا أن يترك الكاهن لينام ويأخذ راحة تامة لجسده فجرَّ حواليه ستار الخيمة ورجع إلى مركزه لإدارة القبة الهوائية.

وقد خفت موازنة القبة مع وجود الضيف الجديد ثقل ثلاثين رطلًا فوالحالة هذه لم يكن فعل القصبة لازمًا ليستمر المسافرون في علو مناسب وعند بزوغ الفجر هبت ريح لطيفة فدفعتهم نحو غربي شمال الغرب.

فذهب فرغوسن برهة لينظر إلى الكاهن فرآه مغميًا عليه.

فقال ديك: حفظ لنا المولى هذا الضيف الجليل الذي بعثه إلينا؛ قل يا

فرغوسن هل لنا أمل بشفائه؟

قال فرغوسن: الأمل به تعالى، وأظن أنه يبرأ بالمداراة وطيبة هذا الهواء الرائق.

فقال يوسف، وهو مضطرب الفؤاد: أواه؛ كم كابد هذا المبتئس من مرّ العذاب، ولكن أتعلمان يا خليليَّ أنه أكثر شجاعةً منا؛ إذ تجرأ على الإقدام إلى هذه البلاد وحده دون رفيق.

قال الصياد: لا شك في ذلك.

فما أراد العلَّامة في ذلك النهار أن يقطع رقاد المريض بل تركه تائهًا في مفاور غشيانه العميق، لكنه كان يتأوه أحيانًا ويتذمر من أوجاعه وهذا ما أقلق بال فرغوسن بشأنه.

وعند المساء مكثت القبة ثابتة في الجو وسط الظلام واستمرت مدى الليل كله، وأراد فرغوسن أن يحرسهم جميعًا واعتاض عن الرقاد بالسهاد.

وفي الغد عند الصباح كانت القبة قد اتجهت قليلًا نحو الغرب واستبان النهار رائق الجو خاليًا من كل غاشية ونادى المريض أصحابه بصوت حسن فسرَّ لذلك الرفاق الثلاثة ورفعوا عنه ستار الخيمة فاستنشق ذلك النسيم الرخيم، نسيم الصباح ببهجة قلب وفرح لا مزيد عليه.

فسأله فرغوسن قائلًا: كيف حالك اليوم؟

قال الكاهن: ربما أحسن من البارحة، ولكن أنت من أنتم يا أصحابي لأذكركم في صلاتي الأخيرة، فإني ما شاهدتكم إلى الآن إلَّا كفي حلم،

وبالكاد أعرف ما جرى لي ولكم عندما سعيتم في تخليصي من التهلكة.

فقال العلَّامة: نحن مسافرون إنكليزيون قد قدمنا على أن نجوز بلاد إفريقية بالقبة الهوائية وفي مرورنا تشرفنا بإنقاذك من أيدي معذبيك.

قال المرسل: إن للعلم أبطالًا.

قال الصياد: وللدين شهداء.

قال العلَّامة: وهل أنت مرسل.

قال إني كاهن من رسالة الآباء العازارية، وقد هداكم المولى لتأتوا إليَّ وتنتشلوني من العذاب فليتمجد اسمه تعالى، أما حياتي فقد قدمتها ضحية، ولكن أرجوكم أن تخبروني عن أحوال أوربا وخصوصًا عن أحوال البلاد الفرنسية؛ إذ أنتم قادمون من أوربا، وأنا لم أسمع قط خبرًا عن تلك البلاد منذ خمس سنوات.

قال ديك وقد خطت الدهشة رسومها على محياه: أنت إذًا مقيم وحدك بين هؤلاء البرابرة منذ نحو 5 سنوات يا للعجب؟!

قال المرسل: إنها أنفس ثمينة مات السيد مخلصنا ليفديها، وما هم إلَّا إخوتنا، لكنهم جهلاء متوحشون، وليس ما يعلمهم ويمدنهم سوى الديانة وحدها.

أما فرغوسن فأخذ يحدث المرسل عن أحوال البلاد الفرنسية بشرح مطول.

فأصاخ المرسل بأذنيه سمعًا لمقال فرغوسن، وكانت عيونه تسكب العبرات من الآماق، ثم هيأ له العلَّامة شيئًا من شراب الشاي وسقاه إياه فشربه بسرور وابتهاج، وحينئذٍ تمكن من أن ينهض قليلًا من فراشه واستوى عليه وتبسم ثغره بلطافة؛ إذ شاهد نفسه محمولًا على أجنحة الرياح في جو رائق كثير الصفاء.

ثم قال لأصحابه: إنكم في الحقيقة مسافرون ذوو شجاعة وبسالة وستنجحون في مسعاكم وتشاهدون الأقارب والخلان والأوطان.

وللحال أمسك عن التلفظ بكلمة أخرى؛ إذ خارت قواه واضطرَّ إلى أن ينبسط على الفراش، وقد انحطت قواه انحطاطًا شديدًا حتى إنه لما ارتمى بين يدي فرغوسن مدة بعض ساعات كان كالميت لا يبدأ بحركة ولم يتماسك العلَّامة عن إظهار جأشه وكدره؛ وقال في نفسه: هل ترى يفارقنا سريعًا هذا المرسل المسكين الذي انتشلناه من ورطة هلاكه؟

ثم ضمد جراحه من جديد واستعمل كثيرًا من ذلك الماء الباقي عنده ليبرد غليل أحشائه الملتهبة وبذل غاية جهده وذكائه في مداراته وملاطفته فكانت تنتعش روح المريض رويدًا، بين يديه وأخذت حواسه، إذا لم نقل حياته، في الرجوع إليه.

فأخبر المرسل المسافرين سيرة حياته بوجيز العبارة وقد تلقن العلَّامة كلام الكاهن من فيه بصعوبة؛ إذ خالجته اللغلغة والهتهتة لشدة ضنكه وعيائه، وقد كان طلب إليه فرغوسن أن يتكلم باللّغة الفرنسية لكونها أسهل عليه أما هو فيفهم بسهولة ما يقال فيها.

إنما المرسل فكان قد ولد في قرية أرادون من مقاطعة مربيهان في شمالي فرنسة وقد عطف منذ نعومة أظفاره على اعتناق العيشة الكهنوتية فدخل رسالة الآباء العازارية المؤسسة من القديس المجيد منصور دي بول قاصدًا بذلك خوض المشاق في الأسفار مع كفره بذاته وزهده في الدنيا وأباطيلها ولما بلغ من العمر زهاء 24 سنة هجر وطنه قادمًا إلى سواحل إفريقية ثم أوغل في البلاد حتى وصل إلى القبائل الحالة في مصبات النيل الأعلى بعد أن قاسى ما قاساه من المشقات والأتعاب والجوع والعطش وهو مع ذلك صابر على حاله مسرور القلب والخاطر متضرع إلى ربه تعالى فجدَّ في إرشاد تلك الأقوام وهدايتها إلى السبيل المستقيم غير أنه لم ينجح ورذلت ديانته وذهبت غيرته باطلًا وعومل سوء المعاملة جزاء على إحساناته وخيريته فحبس عند قوم بربري من قبائل نيامبرَّة وكابد في سجنه مرَّ الشتائم والإهانات والعذاب لكنه ما برح يعلم ويعظ ويبتهل إليه سبحانه وتعالى وإذ في ذات الأيام تبارزت طائفة مع تلك الطائفة التي كان محبوسًا عندها فشتتت شملها ومزقتها خرائق وأذهبتها طرائق وأنزلت فيها البوائق كما هي عادة كل الأقوام الوحشية ولو لم يحسب الكاهن الأسير قتيلًا لكان نابه التعس والويل.

وإذ نجا لم يشأ أن يرجع إلى ورائه بل دخل في أواسط إفريقية وهو يقضي مصلحته في الرسالة والهداية وكانت أيامه زاهرة حين أُعِدّ مجنونًا، وذلك لمواظبته على تعليم الدين المسبحي واحتمال ما يلم فيه من المشتقات والإهانات، ثم طاف حول تلك الأقاليم البربرية مدة سنتين مستطيلتين متسلحًا بترس تلك القوة الإلهية الفائقة الطبيعية التي كانت تدفعه إليها، ومنذ سنة كان قد أقام عند قبيلة من قبائل نيام نيام المدعوة برافري،

وهي من البالغات في التوحش وكان من برهة بعض الأيام قد مات كبيرهم فتظلموا الكاهن وقالوا إنه هو السبب في موته غير المنتظر، وعزموا على ذبحه وكانوا يعذبونه منذ نحو أربعين ساعة، وقد قر رأيهم على أن يقتلوه في الغد عند الظهر كحسب رأي العلَّامة، ولما سمع طلقة الأسلحة النارية صاح بصوته وقال: إليَّ إليَّ وقد خيل له أنه تائه في مفازة الحلم، وإذا بصوت العلَّامة قد أتى وطمأن باله وروعه.

وعندما انتهى من قصته قال: لا أتأسف على ذهاب روحي إلى خالقها ومخلصها.

فقال له فرغوسن: لا تيأس بعد من الحياة؛ فإننا بالقرب منك وننجيك بعونه تعالى من الموت كما نجيناك من آفة العذاب.

فقال الكاهن وهو صابر على مصابه: حسبي ما نلت من كرم المولى، فليتمجد اسمه تعالى لأني حظوت قبل موتي بمشاهدة أصحابٍ أفاضل وسمعت لغة وطني.

ثم عادت قواه إلى ضعفها وقضى النهار بين الرجاء والخوف، وكان ديك مرتاع الفؤاد، ويوسف يمسح من عينيه الدموع على انفراد.

وكان مسير المنصورة غير سريع، وكأنك بالريح قد أرادت مداراة حملها النفيس وملاطفته.

ولما أمست قد لمح يوسف في الأفق الغربي ضياءً عظيمًا فلو وجدوا في عروض أرفع لحسبوه فجرًا شماليًا؛ إذ تراءت السماء شاعلة نارًا فأخذ العلَّامة في الفحص عنه بتدقيق، ثم قال إنما هذا هو بركان يقذف النيران.

فقال الصياد: ولكن ألَا ترى أن الريح تدفعنا إلى ما فوقه.

قال العلَّامة: هب أنها دفعتنا إليه فإننا نجوزه في علو نأمن به من غائلة نيرانه.

وعقب مرور ثلاث ساعات بلغت المنصورة جبلًا بدرجة 15 24ْ طولًا 42 4ْ عرضًا وأمامه فوهة البركان النارية تقذف سيول مواد مذوَّبة مختلفة الأجناس وتدفع منها قطع صخور إلى علو شاهق ومن المجاري النارية ما كان يشبه السلالات المزبدة بتساقطها من الفوهة إلى أسفل، فرقب المسافرون ذاك المشهد البهي، لكنه كان ذا خطر عظيم لأن الريح ما زالت تهب مهبها وتدفع المنصورة إلى ذلك الجو المضطرم لهيبًا.

ولما لم يمكنهم تجنب هذا العائق بل لزمهم أن يجوزوه فأضرم العلَّامة حرارة القصبة إلى أن بلغت المنصورة علو ستة آلاف قدم وكانت بينهم وبين البركان مسافة نحو خمسمائة ذراعٍ.

وقد استطاع الكاهن المريض من فراشه أن يشرف على ذلك الجبل الناري ويتأمل المزبدة المدفوعة منه بشدة كسهام ملتهبة.

ثم قال: إنه مشهد بهي فسبحان من كوَّن الكون وأعجب في خلائقه الرفيعة والهائلة معًا.

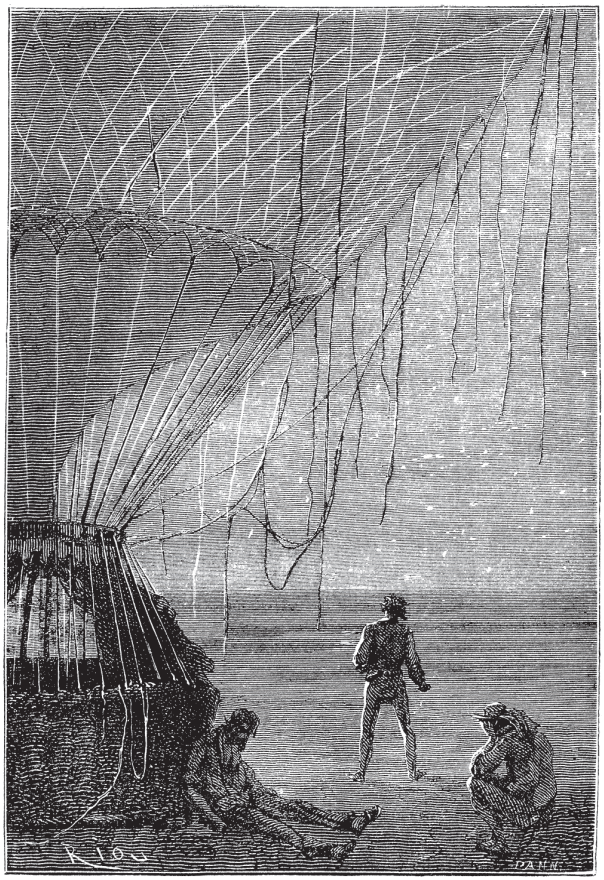
وأما المواد النارية المتدفقة من ذلك البركان فكانت تنزل متساقطة على سفح الجبل، وتبسط على الأرض فراشًا من لهيب النار المتقدة والمتأججة، وفي الليل كنت ترى أسفل القبة مضيئًا من سطوع النيران المتصاعدة ومعها كانت تتصاعد إلى القبة حرارة شديدة فما تماسك فرغوسن أن

بادر بالترحال هربًا من وقوع الويل والأخطار.

فقبل انتصاف الليل بساعتين من الزمان لم يعد يبين الجبل الناري إلَّا كنقطة حمراء في الأفق وما زالت المنصورة سائرة بالأمن والسلام في طبقة جوية أقل ارتفاعًا.

الفصل الحادي والعشرون

في موت الكاهن ودفنه والنقر الذهبية واضطراب يوسف في جمع الأموال
وما حصل له من النكاية



وكانت ليلة بهية تطرب الخاطر، فاضطجع الكاهن واهي القوى، ونام غائبًا عن حواسه.

فقال يوسف: أواه على هذا الشاب الذي لم يبلغ بعد من العمر سوى ثلاثين سنة!... فإن رقاده ربما هو الرقاد الأخير.

قال العلَّامة: سينطفئ نور حياته بين أذرعنا، وقد ضاق تنفسه أكثر مما كان قبلًا، ومالي حيلة لأفرجه.

فقال يوسف بغضب وحنق: قبحهم الله أولئك الصعاليك المجرمين الذين أنزلوا فيه التنكيل، وترى كيف قد وجد هذا الكاهن المبتئس باعثًا ليشفق عليهم ويعذرهم ويسامحهم على زلتهم وآثامهم!

قال العلَّامة: ها قد أوتي من السماء بليلة بهية عساها ليلته الأخيرة، ولكن

لا يعود يذوق عذابًا شديدًا ولا يكون موته إلَّا رقادًا رائقًا.

ثم تلجلج المنازع ببعض كلمات فدنا منه العلَّامة ورأى أن نفسه ضاق جدًا والتمس الهواء فسحب له ستار الخيمة واستنشق حينئذٍ نسيم تلك الليلة الشفافة، حيث النجوم والكواكب ترسل إليه نورها المرتجف والقمر يحتفه ببياض شعاعه.

فقال بصوت ضعيف: إني متوجه راحل عنكم الآن يا أصحابي جزاكم الله على جميلكم، أسأله تعالى أن يوفي عني إحسانكم ويبلغكم مناكم.

قال له ديك: لا تقطع الرجاء بعد؛ فإنْ هذا إلَّا ضعف وقتي زائل، وكيف يأتي الموت في مثل هذه الليلة المبهجة.

قال المرسل: إن الموت نصب عينيَّ، ولا منه مناص فدعوني أتأمله؛ فإنه بداية الأمور الأبدية ونهاية الاهتمامات العالمية، أرجوكم يا إخوتي أن تجعلوني جاثيًا على ركبتيَّ.

فأنهضه ديك قائلًا، وقد استولت الحنية على قلبه إذ رأى أعضاءه الخائرة الفاقدة القوى قد ترضرضت.

ثم صاح قائلًا: إلهي إلهي كن لي راحمًا وشفوقًا.

وقد أضاء وجهه لامعًا كأنه لابس أنوار الحياة الجديدة وصاعد إلى الأعالي بارتفاع عجيب عن الدنيا التي لم يذق فيها فرحًا ولا ملذة، وذلك في تلك الليلة التي كانت تلقي عليه رونقها اللطيف.

ثم منح البركة لرفقائه الذين لم يوانسهم سوى يوم واحد، وكانت تلك

البركة حركته الأخيرة، وارتمى بعد ذلك بين أذرع الصياد المغرورقة عيناه بالدموع السخينة.

فأشرف عليه العلَّامة وقال: هذه دقيقته الأخيرة يقضي فيها نحبه، وللحال ركع الرفاق الثلاثة سجدًا ليصلي كلٌّ على حدة بسكوت تام.

وبعد برهة قال فرغوسن: غدًا عند الصباح ندفنه في هذه الأراضي الإفريقية التي سقاها بعرقه ودمه.

وفي تلك الليلة أقام كلٌّ من الرفاق الثلاثة بحراسة الميت في الأوقات المعينة لهم، ولم يتفوه أحد منهم بكلمة، بل اعتاضوا عن التكلم بذرف الدموع وصدعة الفؤاد.

ولما أصبحت كان مهب الريح من الجنوب والمنصورة سائرة سيرًا بطيئًا فوق صفصفٍ كائن على جبلٍ، وصادفوا في طريقهم أفواه براكين مطفأة، وخنادق مزروعة، والأرض كلها خالية من نقطة ماء واحدة، وقد اتضح لدى المسافرين قحل تلك الأراضي وجدبها مما شاهدوا من الجلاميد المتفاقم بعضها فوق بعض والأراضي المحورة.

ولما عزم العلَّامة على دفن الميت عند الظهر أراد النزول إلى خندق بين صخور ذات كنهٍ أصلي، ليكون له ذلك الخندق بمنزلة ملاذٍ يؤوي إليه قبته لئلا تصدمها الرياح عند نزولها إلى الأرض، حيث إن تلك الناحية كانت خالية من أشجار يلقي عليها المرساة، ولكن لم يعد يمكنهم النزول إلَّا بفقد كمية وافرة من الغاز لسبب إلقائهم أكياس الرمل عند انتشال الكاهن إلى القبة كما كان أنبأ به العلَّامة رفيقه ديك.

ففتح حينئذٍ فرغوسن لولب القبة الخارجة، وإذا بالإدروجن قد أخذ في التنقص، ونزلت المنصورة في الخندق نزولًا بطيئًا.

وعندما مسَّ القارب أرض الخندق أغلق العلَّامة اللولب، أما يوسف فقفز إلى الخارج حالًا ومازال ماسكًا بيده الواحدة طرف المركبة، وفي اليد الأخرى يلقط من الأرض حجارة ويضعها في المركبة حتى وازت ثقله. ثم جعل يجمع بيديه الاثنتين ويكوم حجارة أخرى إلى أن بلغ وزن ما وضعه نحو ثمانين رطلًا، ولساعته استطاع العلَّامة ورفيقه ديك أن ينزلا إلى الأرض، ومكثت المنصورة في موازنة تامة، وكانت قوتها الصاعدة غير قادرة على رفعها عن الأرض في تلك الحالة.

إلّا أنه لم تلجئهم الضرورة إلى وضع حجارة كثيرة، لأن ما جمعه يوسف من القطع الصخرية كان ثقيلًا جدًا، وحمل فرغوسن على أن ينتبه إليه ثم تطلع في الأرض فكانت مفروشة بالقطع الصخرية الكثيرة والجلاميد البرفيرية فقال في نفسه: هذا شيء جديد كشفناه.

أما ديك ويوسف فابتعدا قليلًا ليجدا محلًا يصلح لدفن الميت وفي ذلك الخندق أحسَّ المسافرون بحرارة زائدة لأن شمس الظهر كانت ترميه بأشعتها الملتهبة على الخط المستقيم.

ولما وجدا المحل المناسب رفعا أولًا نقر الصخور المفروشة وعزقا الأرض وحفرا فيها ثقبًا عميقًا لا تستطيع الوحوش الكاسرات أن تنبشه وتنال جثة الميت لتغتذى بها.

ثم وضعا فيه جثة الشهيد باحترام ووقار.

وبعد ذلك طمَّا القبر بالتراب، ووضعا فوقه حجارة صخرية على هيئة ضريح.

أما العلَّامة فكان خائضًا بحر الفكر، ولم يصخ سمعًا لصوت رفيقيه لكي يذهب معهما ويطلب ملجأ يلطي فيه من حرارة الشمس الشديدة.

فقال له ديك: وبم تفتكر يا عزيزي ساموئيل.

قال أتأمل يا ديك بمضادة غريبة في الطبيعة، وصدفة عجيبة في القدر؛ أتعلم يا ديك في أي أرض دفن هذا المسكين البائس الذي كفر بالعالم وأباطيله وبذاته أيضًا؟!

قال الصياد: ما قولك يا صاح؟

قال العلَّامة: إن هذا الكاهن الذي نذر الفقر يرقد الآن في معدن ذهب.

فصاح ديك ويوسف قائلين بعجب: ويلاه!... كيف يرقد في معدن ذهب؟!

قال العلَّامة نعم في معدن ذهب؛ لأن الحجارة التي ندوسها كأنها بدون قيمة ولا ثمن، إنما هي معدن ذهب كلي النقاوة.

قال يوسف تكرارًا: إن ذا لمن المستحيل يا سيدي.

قال العلَّامة: إذا فحصت قليلًا فلا تلبث أن ترى بين الحجارة الخزفية والصخرية كثيرًا من النقر الذهبية الخالصة.

فبادر يوسف للحال كإنسان فاقد العقل وجعل يجمع تلك القطع المتشتتة، وكان ديك راغبًا في أن يحذو حذوه، وإذا بالعلَّامة يقول ليوسف: كن رائق

البال يا صاح ولا تدع الطمع ....

قال يوسف: تكلم ما تشاء يا سيدي! قال: ما هذا وكيف فيلسوف نظيرك ....

قال يوسف: لا توجد فلسفة تصدني عن جمع هذه الأموال.

قال فرغوسن: مهلًا يا يوسف!... تأمل ماذا تنفعنا هذه الأموال إذ لسنا قادرين أن نحملها معنا؟!

قال يوسف: ولم لا نقدر أن نحملها.

قال: لأنها تثقل قبتنا، وقد كنت أرغب في ألّا أطلعك على هذا الأمر خشية أن يجلب عليك الأسف والندم.

قال يوسف: وكيف نرحل تاركين هذه الكنوز المذخورة لنا؟!... نعم هي لنا، أيليق ألّا نكترث بها؟!

قال: احرص على ذاتك يا صديقي لئلَّا تصاب بحمى المال؛ ألم تعلم من الميت الذي دفناه الآن أن تحتقر أشياء العالم الباطلة؟

قال يوسف: بالحق قلت، ولكن على جميع الأحوال هذا ذهب، وأنت يا سيدي ديك ألَا تساعدني لأجمع قليلًا من الكرات والربوات الذهبية.

فقال الصياد مبتسمًا: وما الذي نفعل بها هل أتينا نطلب الغنى والثروة؟... فما لنا ولها؟!

قال العلَّامة: إن الكرات والربوات ثقيلة ولا تودع في الجيوب بسهولة،

فقال حينئذٍ يوسف: أفلا نستطيع أن نحمل من هذا المعدن بدلًا من ثقل الرمل؟

قال العلَّامة: لا بأس، فإني أسمح لك بذلك، ولكن على شرط أنك لا تعبس عندما نلقي ربواتٍ من ذهبك خارجًا عن المركبة.

قال يوسف: ويلاه!... كيف نلقي ربوات من الذهب؟!... ولكن هل كل هذا ذهب خالص؟

قال: نعم يا أيها العزيز؛ فإن هذا المكان حوض كوَّمت فيه الطبيعة كنوزها مذ أجيال، وهنا ما يغني بلادًا وأصقاعًا بتمامها؛ فإن الكنوز التي أودعت بطن هذه المفازة القفرة تحاكي كنوز بلاد أستراليا وكاليفورنيا.

قال يوسف: آهًا لجميع هذه الكنوز!... ستذهب هدرًا لا ينتفع بها امرؤٌ.

قال: إنه من الممكن ألّا ينتفع بها إنسان، ولكن على كل حالٍ فإني أسلي عنك الهم والكدر المستحوذين على قلبك.

قال يوسف، وقد لاحت على وجهه شعائر الندم: لعمري؛ إن ذا أمر عسير.

قال العلَّامة: مرادي أن أرسم لك أعلامًا راهنة تدل إلى مركز هذا المكان، فإذا رجعت إلى الأقطار الإنكليزية أعلمت به رفاقك إذا خيل لك أن الأموال الغزيرة توليهم السعادة والحظوة.

قال يوسف: دعني من هذا الحديث يا مولاي فإني أرى الحقَّ في كلامك ومن الواجب عليَّ الصبر والتحمل، وأما الآن فاسمح لي أن أملأ المركبة من هذا المعدن الثمين، ومهما بقي عند نهاية السفر يكون ربحًا لنا.

ثم أخذ ينقل الحجارة من الأرض إلى المركبة ببهجة الفؤاد، وما لبث أن جمع نحوًا من ألف نقرة من النقر الصخرية المذخور فيها الذهب كفي صوان ذي صلابةٍ عظيمة.

وكان ينظر إليه العلَّامة متبسمًا، وفي غضون ذلك تطلع على مركز مدفن الكاهن فوجد أنه في درجة 23̣ 22̣ طولًا و55 4̣ عرضًا شماليًا ثم رمق رمقة أخيرة لقبر ذلك الرجل الفرنسي وعاد إلى مركبته.

وقد رغب في أن يرسم صليبًا من خشب ولو غير متقنٍ ليضعه على القبر وسط تلك القفار لكنه لم يجد شجرة واحدة نابتة في جوارهم فقال إلى رفيقه الصياد إن الله عارف بهذا المكان وكفى.

وكان فكر فرغوسن مشغلًا في أمر مهم جدًا وهو أنه لكان أكرم بمال جزيل من تلك الكنوز الثمينة لو أوتي وقتئذٍ بشيء من الماء تعويضًا لصندوق الماء الذي رماه عند تمسك العبد الأسود بالقبة، ولكن ما الحيلة وهو مقيم في تلك المفاوز الماحلة والقفار القاحلة. فأشغل هذا الأمر باله وهيج بلباله؛ إذ إنه مضطر بالضرورة القصوى إلى إضرام نار القصبة بالماء، وإذا ما عطشوا فليس عندهم ما يبرد غليلهم، ولهذا عزم أن لا يفوت فرصةً تمكنه من تجديد زاد الماء.

فلما أتى فرغوسن إلى المركبة وجد القطع الصخرية الكثيرة التي كان كومها يوسف الطميع فطلع إليها ولم يقل شيئًا ثم جلس الصياد في مكانه وتبعهما يوسف وقد أرشق كنوز الخندق بعين الطمع والحرص. فأضرم فرغوسن قصبة القبة فتسخن للحال الأنبوب الذي على شكل البرغي وأخذ الإدروجن في السريان، وامتد الغاز، أما القبة فلم تتحرك

من مكانها.

فنظر يوسف إلى سيده بقلق واضطراب.

فناداه العلَّامة باسمه.

أما هو فكان صامتًا ولم يجب سيده.

فقال له العلَّامة: أما تسمعني يا يوسف.

فأومأ يوسف بالإشارة دلالة على كونه سمع صوت فرغوسن، لكنه لم يشأ أن يفهم ما يقوله له.

قال فرغوسن: أرجوك أن تتكرم عليَّ من سخائك وتلقي جانبًا من هذا المعدن خارجًا عن المركبة.

قال يوسف: ولكن أما أذنت لي يا سيدي...

قال فرغوسن: ما أذنت لك إلَّا أن تضع شيئًا مقابل الثقل.

قال يوسف: ومع ذلك...

قال فرغوسن: أتريد إذًا أن نستقر في هذه القفار إلى أبد الآباد؟

فنظر يوسف حينئذٍ إلى الصياد بعين اليأس والقنوط، أما هذا فابتسم بسمة من ليس له مقدرة على تنفيذ الإرب.

قال فرغوسن: وإلى متى يا يوسف؟

قال وهو شر عنيد: ألَا تشتغل قصبتك؟!

قال فرغوسن: ألَا ترى أن القصبة مشتغلة وأما القبة فهي لن ترتفع إذا لم تلق شيئًا من الأحمال التي ثقلت بها المركبة.

ففرك يوسف أذنه ثم أخذ نقرة صخرية وهي الأصغر والأخف ثقلًا وجعل يستعبرها وينقلها من يدٍ فكان وزنها نحو ثلاثة أو أربعة أرطال إنكليزية فرماها وهو ينظر إليها بشوق.

أما المنصورة فاستمرت غير متحركة من مكانها.

فقال يوسف: واعجبًا من حالتنا؛ لم لا تزال عليها؟!

قال فرغوسن: لم نزل على ما نحن عليه؛ فداوم شغلك يا يوسف.

وكان ديك ينظر إلى يوسف ويضحك، ثم ألقى يوسف نحو عشرة أرطال ولم تتحرك القبة، فعلا الاصفرار وجهه ولاحت عليه لوائح الكدر.

قال فرغوسن: ألَا تعلم يا يوسف أن وزن ثلاثتنا يبلغ نحو سبعين رطلًا ونيف، فيجب عليك أن تلقي ثقلًا يضاهي ثقلنا ليمكننا الارتفاع.

فصرخ يوسف بقلب جريح: لا حول ولا قوة إلّا بالله، وكيف ألقي سبعين رطلًا؟!

قال فرغوسن: هيا يا بني هيا!... وألق أيضًا شيئًا لنعلو عن الأرض.

فتنفس يوسف الصُّعَدَاء وأخذ يرمي الحجارة من القبة وفي خلال ذلك كان ينتظر برهة ويقول: هانحن أولاء نرتفع.

أما صوت العلَّامة فكان يجيبه قائلًا: لسنا في ارتفاع بل ما زلنا على حالتنا.

ثم قال أخيرًا: ها القبة قد تحركت.

قال العلَّامة: ارم ثم ارم.

قال يوسف: أؤكد لك يا سيدي أن القبة تطلع إلى العالي.

قال العلَّامة: ارم ولا تنفك عن الرمي.

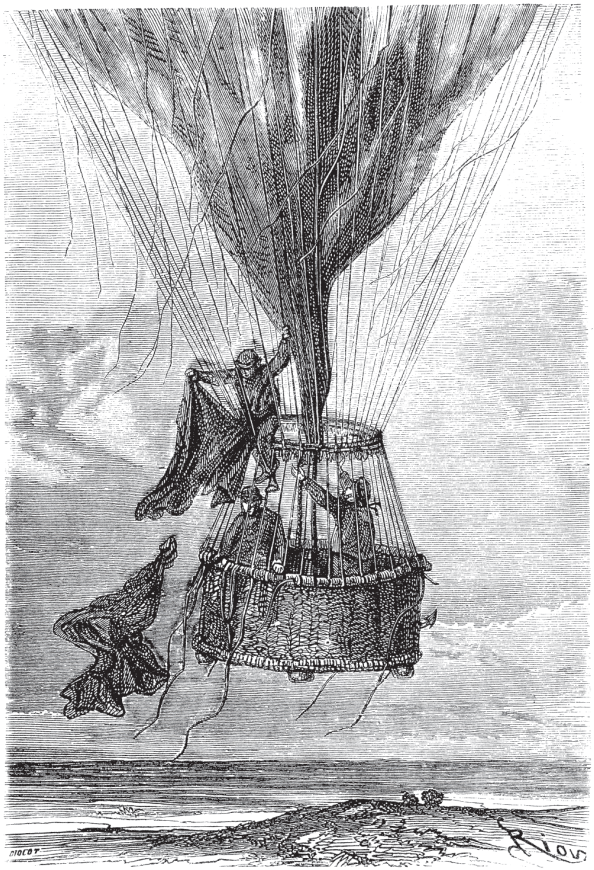
فأخذ يوسف نقرة أخيرة بيأس وكدر ودحرجها إلى الأرض فارتفعت المنصورة نحو مائة قدمٍ، وجاز المسافرون ذرى ذلك الجبل بمساعدة حرارة القصبة.

قال العلَّامة: اعلم يا يوسف وفقك الله أنك لا تزال محافظًا على مال جزيل، وإذا توقفنا وتمكنا من حفظه إلى النهاية كفاك لأن تكون غنيًا إلى آخر يوم من عمرك.

فسكت يوسف ولم ينطق بكلمة، بل تمدد مضطجعًا على فراشه المعدني.

فاستتلى فرغوسن كلامه وقال للصياد: أَنظرت يا ديك كيف فعلت قوة هذا المعدن في نفس ذات شهامة عجيبة وقلب سليم رائق؛ فكم من الشهوات والأهواء بل كم من الآثام لكان يهيجها معدن مثل هذا؟... لو شاع خبر اكتشافه؛ لعمري إنَّ ذا مما يحسر الكبد ويفجع الفؤاد.

وفي العشية كانت قد تقدمت المنصورة في الجهة الغربية نحو تسعين ميلًا وهي بعيدة حينئذٍ عن زنجبار بخط مستقيم ألفا وأربعمائة ميل.



الفصل الثاني والعشرون

في دنوّ المسافرين من الصحراء وليالي خط الاستواء وتقلقل زاد الماء وما صمموا عليه من المقاصد والنوايا

فتعلّقت المنصورة في شجرة قامت منفردة في أرض قفرة وقد يبست نصفًا وقضى المسافرون ليلتهم بأمان وهدوء وذاقوا فيها لذة الوسن؛ إذ إنهم قد تشوقوا إلى الرقاد لما أثرت في فؤادهم الاهتمامات التي أدركتهم في اليومين السالفين.

وفي الغد عند الصباح عادت السماء إلى صفائها وبزغت الشمس متلألئة فاورت زناد الحرارة ثم ارتفعت القبة في الهواء وبعد امتحانات عدة وجدوا مهبًا خفيفًا دفعهم إلى شمال الجهة الغربية.

فقال العلَّامة: إنَّا لا نتقدم يا رفاق إلى ما قدام، وعلى ظني إننا قد جزنا نصف الطريق في رحلتنا هذه ببرهة عشرة أيام، ولكن إذا دامت الحال على هذا المنوال من السير البطيء لزمت أيام وشهور لنصل آخر المجال ومما يزيدنا نكاية على نكاية هو أن الماء عندنا سينفد عما قليل.

قال ديك: الأمل أن نجد ماء قبل نفاد ما بقي منه، لأنه من المستحيل ألَّا نصادف نهرًا أو جدولًا أو بحيرة في فسيح هذه الصحراء كلها.

قال العلَّامة: هذه رغبتي وغاية مشتهاي.

قال ديك: وهل لم تعوق مسيرنا تلك الأحمال الباهظة التي ثقل بها يوسف مركبتنا.

قال هذا قصدًا في نكاية يوسف من باب المزح؛ إذ إنه قد كاد يصاب بنفس مصاب رفيقه عند اطلاعه على تلك النقر الذهبية. ولكن لما كان قد كظم شدة حرصه ولم يتظاهر بما انطوى عليه حينئذٍ فؤاده اتسم بسمة إنسان ذي تبصر في الأمور، وكان يضحك لهوًا وهزءا من رغبة يوسف في حشد الأموال.

فرماه يوسف بلحظة مؤثرة، أما فرغوسن فثابر على السكوت وأفكاره موجهة باضطراب سري نحو مفاوز الصحراء ومسافتها الشاسعة، فإنه في تلك القفار كثيرًا ما تنقضي أسابيع جمة ولا تجد فيها القوافل بير ماءٍ لتروي منها غليل العطش، ولهذا كان مشددًا حرصه في مراقبة الأراضي المنخفضة لعلَّ الماء فيها مجتمع.

فهذه الاهتمامات مما جرى لهم من الحوادث السالفة غيرت منهم القلب والجنان، وقلبت مسامرتهم وأحاديثهم إلى السكوت وخوض بحور الأفكار والهواجس.

أما يوسف الخادم الهادي البال فقد تحوَّل من هيئةٍ إلى هيئةٍ منذ ما اطلع على تلك الذخيرة الثمينة والأموال الجزيلة فلازم الصمت وأخذ

يحدق بصره بحرصٍ إلى تلك الحجارة المكومة في المركبة ويتأمل بها كثيرًا ويفتكر في نفسه قائلًا: اليوم لا قيمة لها أما بعد فيبين عظم أثمانها.

كان منظر تلك البقاع والفدافد هائلًا، ومما يكبل المرء في سلاسل القلق والهلع ويوهيه في وهدة الهجس والبلبال إذ أخذت الصحراء في الامتداد والتوسع وندر الزرع في الأرض، ولم يعد يرى للأكواخ من أثر بل بانت الرمال البيضاء والحجارة المحمرة كجمر النار وبعض الأجمات الشائكة ثم شاهدوا في تلك المفازة العقيمة سلسلة صخور ذات رؤوس حادَّة عرية من كل ترابٍ وهيئتها هيئة الصوان، فانتبه فرغوسن إلى ذلك الجدب وفكر فيه كثيرًا.

ولم يتيسر لهم أن يروا أثرًا لقوافل تجرأت على خوض بحور تلك القفار؛ إذ لم ير عظما من عظام الناس أو الحيوانات، وكان لابد من بلوغ بحرٍ عظيم من الرمال التي ينقلب بعضها على بعض كأمواجٍ طامة.

ففكروا في الرجوع إلى الوراء، غير أن ذا من المحال لقلة الماء الفاضل فاقتضت الحال أن يتقدموا إلى قدام، وكان العلَّامة يود لو أنَّ عاصفة تهبَّ وتدفعهم عن تلك الأصقاع، ولكن أين الغيوم والسحب وأين الريح العاصفة، فانقضى النهار كله ولم يجوزوا فيه أكثر من ثلاثين ميلًا.

فواهًا لو نفد زاد الماء؛ ترى ما الذي يصيبهم؟... بالحقيقة لم يبق عندهم من الماء سوى ثلاثة عشر لترًا ونصف، ولذا وضع فرغوسن ثلثه على انفرادٍ لكي يربطوا قلوبهم عند التهابها بنار العطش من جراء تلك الحرارة الشديدة البالغة إلى 90 درجة إنكليزية، وأبقى الثلثين الآخرين لإضرام نار القصبة، ولكن هذه الكمية لا تحصل سوى 480 قدمًا مكعبًا

من الغاز، والحال أن القبة كانت تنفق نحو تسعة أقدام مكعبة في برهة ساعة من الزمن، فوالحالة هذه كان معهم ما يكفيهم مشيًا مدة أربع وخمسين ساعة لا غير، وقد حسب هذا كله بدقةٍ.

فقال العلَّامة لرفيقيه: ما بقي لنا غير أربع وخمسين ساعة، وحيث قد صممت النية على أن لا نمشي في الليل لعلنا نصادف جدولًا أو نبعًا أو مستنقع ماء نفوته فيكون عدد الأيام الذي يتيسر لنا فيها المسير ثلاثة ونصف وقد اضطررت إلى أن أعلمكما بهذه الحالة المفجعة التي نحن عليها، لأنه لم يبق عندنا إلّا القليل من الماء فوضعت شيئًا منه لنبرد غليل عطشنا؛ فمن الواجب علينا منذ الآن أن لا نبذره ولا أسقيكما إلَّا عند اللزوم.

قال الصياد: افعل بنا ما تشاء يا فرغوسن، ولكن لم نضطر بعد إلى قطع الرجاء؛ ألم تقل أنه باقٍ لنا ثلاثة أيام ونصف؟

قال العلَّامة: بلى يا عزيزي.

قال: يا ترى ما النفع من الأسف والتحسر؛ فما لنا إذًا ولهذا الفكر!... دع هذه المدة تمضِ وبعدها نفتكر فيما يلزم عمله، وأما الآن فعلينا أن نضاعف سهرنا وانتباهنا.

وعند العشاء توزع الماء باقتصاد وشحٍ، وأضيف إليه قليل من العرق لأن كثرته لا تفيد تبريدًا بل التهابًا.

وفي الليل قرَّت القبة على صفصفٍ بان كأنه في انخفاض عظيم، وبالكاد كان يبلغ علو سطحه عن مساواة سطح البحر نحو ثمانيمائة قدم فأضاء

نور الأمل في قلب فرغوسن لهذه الحادثة، وتذكر ما خمنه أهل الجغرافية من وجود بحيرة في قلب إفريقية، ولكن هب أن تلك البحيرة موجودة في الحقيقة فكيف الوصول إليها من كون السماء رائقة ولا فيها تغيير البتة؟

فعبر الليل الصافي مع ضياء سمائه المتلامع بأشعة الكواكب والنجوم وردفه النهار الوضاح بأكثر صفاء ورواقٍ، وسطعت فيه أشعة الشمس بشدة الاحتراق، ولما كانت الساعة الخامسة قال: هبوا على الرحيل، ولكن استمرت المنصورة برهة جامدة في ذلك الجو الرصاصي لا تمشي ولا تلوي.

وقد كان في إمكان العلَّامة فرغوسن أن يحايد تلك الحرارة الشديدة بارتفاعه إلى طبقات عالية فلم يُعِقْه عن ذلك سوى قلة الماء، لأنه لو أراد الصعود إلى العلاء لاقتضى الأمر إنفاق كمية وافية من الماء، وهذا من المستحيل فاكتفى بحفظ قبته في علو مائة قدم عن الأرض، وهناك كانت تهب ريح خفيفة تدفعها نحو الأفق الغربي.

ثم فطروا قليلًا من اللحم المملح، وعند الظهر كانت القبة قد سارت بعض الأميال.

فقال العلَّامة وقتئذٍ: إننا لا نستطيع أن نمشي بأكثر سرعةٍ من هذه؛ فلسنا نحن الآمرون بل مأمورون ونطيع بصبر جميل.

قال الصياد: حبذا لو كانت لنا الآلة الدافعة في هذه الواقعة.

قال العلَّامة: لا شكَّ في ذلك يا ديك، ولكن على شرط أن هذه الآلة لا تنفق ماءً لتفعل حركتها وإلَّا فتكون الحالة واحدة؛ فإنه إلى هذا اليوم لم يخترع بعد شيء قابل الاستعمال، والقبات الطيارة هي الآن كما كانت السفن قبل

اختراع البخار، وقد مكث الناس لاختراع آلاته مدة ستة آلاف سنة، فلنا والحالة هذه وقت طويل للانتظار.

فقال يوسف: تبًا لهذه الحرارة القادحة قال وهو يمسح عرقه الجاري من جبينه قاطرًا.

قال فرغوسن: لو حوينا الماء لكان لنا فائدة من هذه الحرارة؛ إذ إنها تبسط الإدروجن الذي في القبة ولا يتطلب اللولب الذي على هيئة البرغي لهيبا شديدًا؛ نعم إنه لو لم يكن الماء على وشك الفروغ ما لزمنا أن نجد في توفيرها؛ قبح الله العبد الشقي الذي أخسرنا ذاك صندوق الماء الثمين.

قال ديك: وهل تندم على ما فعلت يا صموئيل؟

قال كلَّا يا ديك؛ فقد أنقذنا المرسل المبتئس من ميتة شنيعة، ولكن لو بقي عندنا صندوق الماء الذي رميناه لكفانا مسيرًا مدة ثلاثة عشر يومًا، وفي هذه المدة لأمكننا أن نجوز القفر كله.

قال يوسف: وهل لم نقطع نصف الطريق في رحلتنا الإفريقية؟!

قال فرغوسن إذا اعتبرنا ذلك بالنظر إلى المسافة فنكون قد قطعنا نصف الطريق، وأما إذا اعتبرناه نظرًا إلى المدة ومكث الريح في سكون فلا أعلم أين يكون نصف الطريق، وأظن أن الريح مائلة إلى العدم.

قال يوسف: دع عنا هذا الحديث ولا تتأسف على حالنا؛ فقد نجونا في مدة سفرنا من كل آفةٍ، ومهما جرى لنا فإني ما سك بحبل الأمل ولا تخيب ثقتي، بل أقول لكما إننا سنجد ماءً عند الاقتضاء فليطمئن منكما البال

وليذهب عنكما كل هجس وبلبال.

أما الأرض فكانت آخذة بالانخفاض من ميل إلى ميل، والعوج الذي للجبال كان ينتهي عند الرمال، فقام هناك الحشيش المتفرق مقام الأشجار الجميلة الكائنة في الجهة الشرقية، ومن النباتات ما كان قريبًا من الغرق في بحر تلك الرمال، وصخور كثيرة متساقطة من جبال بعيدة قد تحطمت في سقوطها، وتبعثرت حصى مسنونة في تلك البادية وستذوب وتصير رملًا خشنًا، وبعده تحولها حرارة الشمس إلى حب ناعم للغاية.

قال العلَّامة: هاك يا يوسف إفريقية كما كنت تتصورها، ولذا قلت لك إنه يلزمك أن تشدد حبل صبرك وأناءتك.

قال يوسف: نعم سيدي؛ إن ذا أمر طبيعي حرارة ورمال وهل يليق أن تطلب شيئًا آخر في مكان كهذا، ثم قال ضاحكًا أعلم أني ما كنت أثق كثيرًا بغابك وأحراشك لأن في ذلك تناقص، وهل يا ترى تحملنا العذاب والشقاء لنأتي من بلادنا ونجد هنا نضارة أراضينا وبساتيننا؛ فهذه هي المرة الأولى التي فيها أرى ذاتي مقيمًا في إفريقية حقيقة، ويسرني أن أذوق شيئًا من حلاوة مقرّها.

وعند المساء قرر العلَّامة أن المنصورة لم تخط عشرين ميلًا في ذلك النهار الشديدة حرارته، ولما توارت الغزالة في طي الغسق خيم تلك المفازة ظلام مدلهم وسخن معًا.

وكان الغد نهار الخميس وهو أول يوم من أيام شهر أيار، أما الأيام فكان يلي بعضها بعضًا بسياقٍ واحد من شأنه أن يلقي المسافرين في وهدة

القنوط واليأس، وكل صباح يماثل الصباح الذي عبر. وما زالت الشمس عند الظهر ترميهم بأشعتها القادحة، والليل يزيد الحرارة ثقلًا، والهواء قد أضحى تنفسًا لا نسمة، وخيل أنه عما قليل سيزول ذلك النفس الطفيف من تلقاء ذاته.

أما العلَّامة فرغوسن فأضمر في قلبه شعائر الكدر تلك التي دهمته من جراء تلك الحالة المفجعة، وما برح متسمًا بسيما الطمأنينة والرواق كإنسان محتنك قد تمرَّن على اقتحام الأخطار وخوض المنايا، وكان ضابطًا منظرته ويتطلع في مراكز الأفاق كلها عله يصادف ما يهديه إلى منبع ماء؛ فما شاهد إلَّا انقطاع الآكام والأراضي النباتية وانبساطة الرمال كبحرٍ طامٍ لا نهاية له.

ثم هاجمته أفكار المسؤولية التي تحملها على عاتقه بسبب استرفاقه ديك ويوسف أعز أصحابه، اللذان أقادهما بقوة الصحبة أو الخدمة فتلاعبت في ميدان دماغه جيوش الأفكار وأطرق برهة، وإن لم يظهر على نفسه أدنى ارتباك، فسأل نفسه هل تصرف حسنًا بإقدامه على تلك الرحلة الجوية؟ وهل لم يسلك طريقًا محرمة أو لم يحاول في سفره مجاوزة حدود الاستحالة؟ وهل لم يترك الباري سبحانه وتعالى لأجيال متأخرة معرفة تلك البلاد المجهولة؟

فصدمته هذه الظنون وتخللت عقله في وقت واحد كما يحدث للمرء في ساعة ييأس فيها من الخلاص، وإذ لم يستطيع أن يشتت جيوش الهموم الواثبة عليه قد كاد أن يخرج من حدود الرشد والصواب، وبعد أن تقرر في عقله ما وجب عليه إهماله قبلًا أخذ يهتم بما يجب عليه فعله ساعتئذٍ،

فقال في نفسه: هل يا ترى هو أمر مستحيل الرجوع إلى الوراء أم هل ليس في طبقات الجو العالية مجاري رياح قادرة أن تدفعه إلى بلاد أقل محولًا وجدبًا؛ فإنه قد عرف الأصقاع التي مر بها، لكنه جاهل بالأماكن التي يتجه إليها ولما ضايقه ضميره عزم على أن يشرح لرفيقيه واقعة الحال كما هي بمطلق الحرية، ففسر لهما الأمر جليا، وذكرهما بما قد تم من العمل، وأوضح ما بقي عليهم منه، وأكد أنهم، بحصر المعنى، قادرون على الإدبار والرجوع إلى الوراء، وبعد أن فرغ من شرحه التمس منهما أن يعرضا له رأيهما.

فقال يوسف: ليس لي رأي سوى رأي سيدي، وما هو مزمع أن يكابده من المشقة سأكابد أنا أيضًا بأكثر جراءةٍ وبسالة منه، وإلى حيثما سار أسير أنا، وإلى حيثما مضى مضيت معه.

فقال العلَّامة: وأنت يا ديك.

قال ديك: أما أنا يا خليلي صموئيل فلست بقاطع حبل الآمال، ولعمري قبل أن أقدم معك على السفر لم أغفل قط عن أخطاره ومخاوفه ولكني عزمت على ألّا أكترث بهذه الأخطار، ولا أعتبرها طالما رأيتك قاحمًا فيها؛ فأنا لك جسمًا ونفسًا، وأما رأيي في الحالة الحاضرة فهو أن نداوم رحلينا وتنتهي إلى الغاية، وأظن أن أخطار الرجوع إلى الوراء تضاهي أخطار التقدم إلى ما قدام فهيّا إذًا على المسير، وثق بصداقتنا نحن الاثنين.

فتحرَّك قلب فرغوسن من مثل ذلك الكلام، وقال: عافاكما الله يا صاحبيَّ الأحقاء؛ فهذا الذي كنت أؤمله من حبكما وتعلّقكما بصداقتي، وقد أجداني كلامكما شجاعة وبسالة فأشكر معروفكما وحبكما.

ثم قبض ثلاثتهم بعضهم على يد بعضٍ دلالة على تجديد مباني المحبة والوداد والأمانة.

فاستتلى فرغوسن كلامه، وقال: أنصتا لمقالي يا رفيقيَّ؛ إنه بموجب تقويمي لسنا بعيدين عن جون غوينه أكثر من ثلاثمائة ميل فلا يمكن أن تكون الصحراء بلا نهاية؛ حيث إن ساحل غوينه كثير السكان، ومعروف لحد مسافة بعيدة من البحر المحيط، فإذا لزم الأمر ذهبنا إلى تلك الجهة ومن المستحيل أن لا نصادف في طريقنا بئرا أو غوطة لنجدد زاد الماء، ولكن ما نحن في احتياج إليه الآن إنما هو الريح التي بدونها نستقر ثابتين وجامدين في الفضاء.

فقال الصياد: صبرًا جميلًا يا خليليَّ.

فعبر ذلك النهار المستطيل، وهم ينتظرون حركة في الجو، فلم يظفروا بعلامة تلقي في قلوبهم شعاعًا من الأمل، بل توارت الشمس وراء الأفق وهي ترمي رمل الصحراء بأشعتها النارية.

فأنفق فرغوسن مائة وخمسة وثلاثين قدمًا مكعبًا من الغاز لإضرام نار القصبة، مع أنهم لم يسيروا سوى نحو خمسة عشر ميلًا، وبردوا لهيب عطشهم بكمية من الماء تبلغ نحوًا من لترين.

ثم جاز الليل بسكون عظيم ولم يطب للعلامة رقاد.



جول فيرن:

«جول غابرييل فيرن- Jules Verne» عام (1828 - 1905)، أديب فرنسي شهير، ترجمت رواياته وانتشرت على نطاق واسع خلال فترة الستينيات، التي أكدت قيمة فيرن الأدبية التي تكمن في كونه رائد أدب الخيال العلمي الحديث، خاصة مع صدور رائعته «من الأرض إلى القمر» (1865) والتي تنبأ فيها بإرسال ثلاثة رواد قبل حصول ذلك فعلاً قرابة قرن من الزمن، كما تحدَّث فيرن عن الكهرباء والغواصات ومخترعات علمية كثيرة طبعت القرن التاسع عشر والتي كان يتنبأ بها ويتوقَّع ظهورها لخدمة الإنسانية قبل ظهورها بعشرات السنين.

كتب فيرن أولى رواياته «خمسة أسابيع في منطاد» (بالفرنسية: Cinq semaines en ballon، وبالإنجليزية: Five Weeks in a Balloon)، تضم مغامرات استكشافية في إفريقيا قام بها ثلاثة إنجليز. وبعد رفضها من أحد الناشرين قدَّمها للناشر بيير- جو الذي بادر بإصدارها عام 1863، فلاقت نجاحاً لم يكن متوقَّعا عند الفرنسيين، فشكَّلت في زمنها تذكرة سفر نحو قارة مجهولة بالنسبة للأوروبيين. لتتوالى بعدها روايات أخرى منها: (من الأرض إلى القمر، عشرون ألف فرسخ تحت الماء، الجزيرة الغامضة، حول العالم في ثمانين يوماً...). توفي جول فيرن في أول القرن الذي تحقَّقت فيه كلّ تنبؤاته.

يوسف سركيس:

يوسف بن اليان بن موسى سركيس (1272 - 1351هـ = 1856 - 1932م). ذكره خير الدين الزركلي في قاموس الأعلام: صاحب «معجم المطبوعات العربية والمعربة- في أحد عشر جزءا. ولد بدمشق، وانتقل إلى بيروت طفلاً، وقضى 35 عاماً في خدمة البنك العثماني، كاتباً، فمديراً، في بيروت ودمشق وقبرص وأنقرة والآستانة. واستقر بمصر سنة 1912 فاشتغل بتجارة الكتب، وصنّف كتابه «معجم المطبوعات»، وله «جامع التصانيف الحديثة»، و«أنفس الآثار في أشهر الأمصار» و«الرحلة الجوية في المركبة الهوائية» ترجمه عن الفرنسية، والأصل للكاتب الفرنسي «جول فيرن Jules Verne»، وكتب مقالات بالفرنسية عن الآثار في تركيا كافأته عليها الحكومة الروسية (القيصرية) بتعيينه عضو شرف في معهد الآثار الروسي، وكان معنياً بجمع النقود القديمة والآثار، وتوفي بالقاهرة.

الفهرس

الفصل الأول

في مقصد العلَّامة فرغوسن ووقوع المباحثة عنهُ 5

الفصل الثاني

في صاحب العلَّامة فرغوسن وجدالهُ معهُ على الترحال وفي ذلك فوائد 11

الفصل الثالث

في ذكر الرحلات التي عاناها المسافرون في بطون إفريقية ومفاوزها بقصد الاكتشافات الجديدة 23

الفصل الرابع

في أهمية الرحلة الإفريقية 31

الفصل الخامس

في خادم العلَّامة ساموئيل وزنة المسافرين 36

الفصل السادس

في تفاصيل المركبة الهوائية من القبة والقارب والآلة السرية وتجهيز حاجات الرحيل الضرورية 45

الفصل السابع

في ركوب السفينة وإيضاح القوة التي ترقي القبة الهوائية وتنزلها حسب المراد 53

الفصل الثامن

في المعنى المتقدم ذكره 61

الفصل التاسع

في وصول المسافرين إلى زنجبار وارتقاء القبة الهوائية إلى الطبقات العلوية 71

الفصل العاشر

في مرور المسافرين في بلاد عديدة ومبيتهم على شجرة الصبَّار فوق جبل دوتومي 79

الفصل الحادي عشر

في حمَّى ديك ودوائها ونزوله إلى الأرض مع يوسف طلبًا للصيد 89

الفصل الثاني عشر

في هجوم السعادين على القبة الهوائية ووصول المسافرين إلى كازه 99

الفصل الثالث عشر

في مدينة كازه وسوقها وأولاد القمر وهيئة رقصهم وعبادة قوم تلك البلد ليوسف وظهور قمرين في البقعة السماوية 113

الفصل الرابع عشر

في العاصفة الشديدة والنجاة منها وفي أرض بلاد القمر الأريضة ومستقبلها 127

الفصل الخامس عشر

في بحر الخضرة ومصارعة الفيل والعشاء في البرية والمبيت فيها 141

الفصل السادس عشر

في ما كان من بحيرة أوكاروه ومبيت المسافرين على جزيرة قفرة ومشاهدتهم عيون النيل وإمضاء أندريا ديبنو 155

الفصل السابع عشر

في الجبل المرتجف وأقوام نيام نيام وما كان من أحاديث العرب عن تلك البلاد 171

الفصل الثامن عشر

في الآنية السماوية والأشجار السامية الارتفاع والمذبحة الشنيعة التي تخللتها الوسائط الإلهية 181

الفصل التاسع عشر

في الغارة الليلية والصوت إليَّ إليَّ وبذل الاجتهاد في نجاة المرسل 193

الفصل العشرون

في المرسل العازاري وانتشالهِ من أيدي البرابرة وسيرتهِ وأوجاعهِ الأليمة وحسن مداراة العلَّامة فرغوسن لهُ 207

الفصل الحادي والعشرون

في موت الكاهن ودفنه النقر الذهبية واضطراب يوسف في جمع الأموال وما حصل له من النكاية 221

الفصل الثاني والعشرون

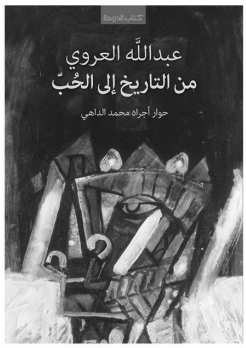
في دنو المسافرين من الصحراء وليالي خط الاستواء وتقلقل زاد الماء وما صمموا عليه من المقاصد والنوايا 235

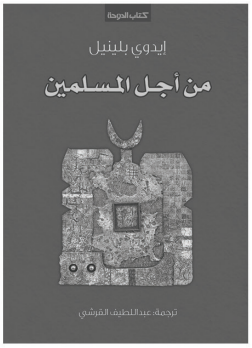
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

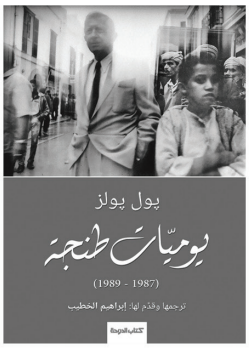
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو

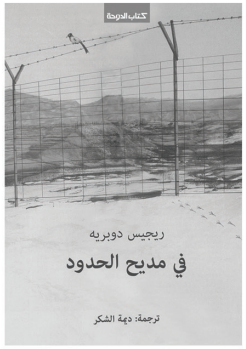
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى
74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلَاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِطافٌ (مُختَارَات مِن اَلْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ فِي قَطَر)	مجموعة من الكتاب

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

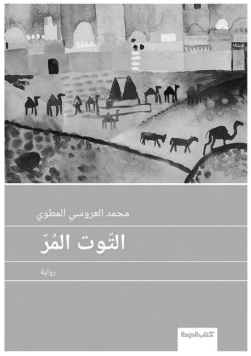












«لما كان اليوم الخامس عشر من شهر يناير/ كانون الثاني سنة ألف وثمانيمائة واثنين وستين أذاعت الصحيفة الإنجليزية المعروفة باسم «دايلي تلغراف» النبذة الآتي ذكرها:

إنه عن قريبٍ ستنجلي للعيان غيوم الظلام التي تستر عن الخاص والعام ما في بطون إفريقية وأقفارها الشاسعة من الأسرار والخبايا والكنوز والخفايا، ولطالما جد في اكتشافها العلماء والسياح وبذلوا وسعهم في الدخول إلى تلك الأقاليم والبطاح، وفي الأيام السالفة كان يُعَدّ ضرباً من الجنون والخرافات التشجيع على الرحيل بقصد اكتشاف عيون النيل...».

صدر هذا الكتاب عام 1863، بعنوان ««خمسة أسابيع في منطاد»، وهو الإصدار الأول للأديب الفرنسي الشهير «جول غابرييل فيرن» (1828 - 1905)، رائد أدب الخيال العلمي الحديث الذي تنبأ في رواياته بمخترعات علمية كثيرة طبعت القرن التاسع عشر.

في هذه التحفة الأدبية، التي تعيد مجلة الدوحة إحياءها في جزأين ضمن سلسلة كتاب الدوحة المجاني، دوّن فيرن مغامراته الاستكشافية في إفريقيا، ولاقت، عند صدورها، نجاحاً لم يكن متوقَّعا عند الفرنسيين، فشكّلت في زمنها تذكرة سفر نحو قارة مجهولة بالنسبة للأوروبيين عامة. وقد نُشرت الترجمة العربية الأولى في بيروت عام 1875 بعنوان «الرحلة الجوية في المركبة الهوائية».